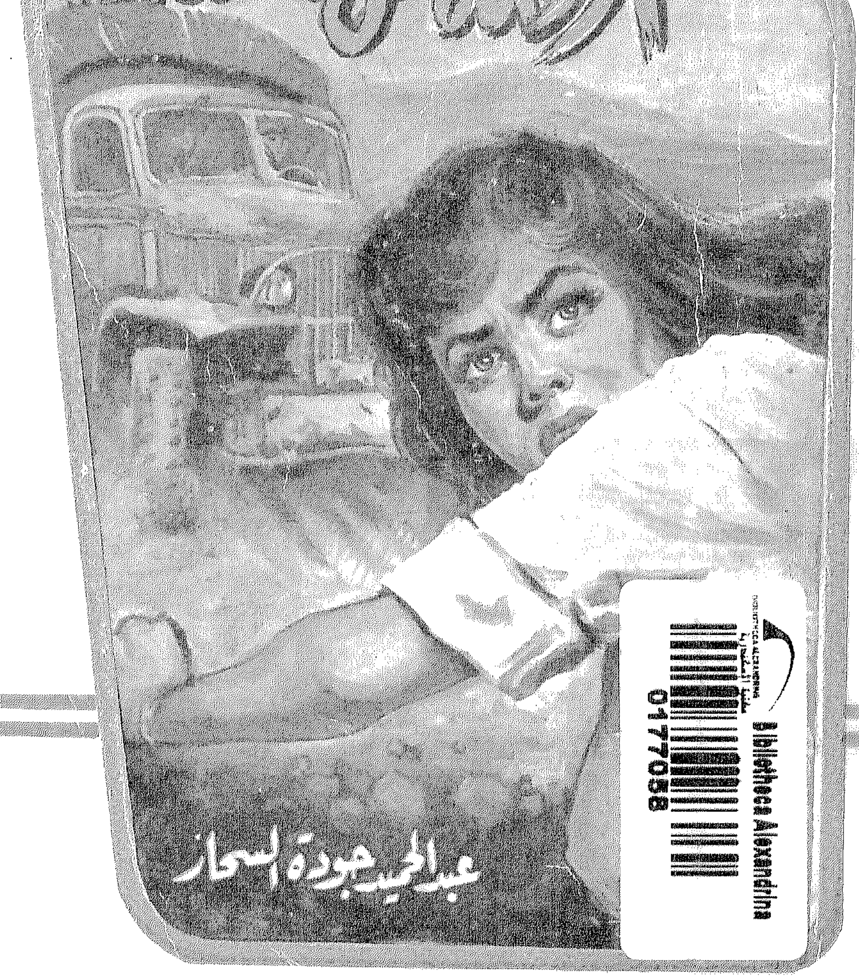
الكتاب الذهبي
نادي القصة

أرملة من فلسطين



عبد الحميد جودة السحار

الكتاب الفضي

سلسلة شهرية تصدر عن نادي القصة

فى الخامس من كل شهر

رئيس التحرير : يوسف السباعى

المدير العام : حسن ايرانى

العـــدد ٢٥

ديسمبر ١٩٥٩ ــ جمادى الآخرة ١٣٧٩ ــ كانون أول ١٩٥٩

التحرير والادارة : ٤٧ شارع نجيب الريحانى ــ القاهرة
ص . ب ٣٢٨ ــ القاهرة ت ٤٨٦٦٩

الاشتراكات : ١٠٠ قرش عن سنة (١٢ عددا) فى داخل اقليم مصر والسـودان وما يعـادل ١٢٠ قرشا عن سـنة فى الأقطار العربية .

التــوزيع : فى داخـــل اقليم مصر « الشركة العربيـــة للطباعة والنشر والتوزيع » ٤٧ شارع نجيب الريحانى ــ القاهرة وفى الاقطار العربية : الشركة العربية للتوزيع ببيروت ومكتبة المثنى (قاسم الرجب) ببغداد . وشركة الصحافة السعودية بجدة

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية

الكتاب الفضي

نادي القصة

سلسلة شهرية تصدر عن نادي القصة
الناشر : الشركة العربية للطباعة والنشر

اهداءات ١٩٩٩

ا/ محمود محمد علي العيسوي

الإسكندرية

عبد الحميد جودة السحار

أرملة من فلسطين

الناشر: الشركة العربية للطباعة والنشر
شارع نجيب الريحاني القاهرة

ارملة من فلسطين

اقتربت المضيفة من على ، وكانت ترتدى ثوبا فى زرقة السماء الصافية ، فصل على هيئة شوال ، استعدادا لخدمة ركاب الطائرة ، فأشار لها اشارة خفيفة ، فخفت اليه مبتسمة تسأله عن حاجته فطلب فنجان قهوة سادة ، وانطلقت المضيفة بقامتها الفارعة الى مطبخها الصغير الأنيق وثوبها يتثنى فى الفراغ بين الأكتاف والأرداف فيجسم مفاتنها الصارخة .

والتفت على عن يساره فوقعت عيناه على امرأة سمراء البشرة ، عسلية العينين ، يحدهما من أسفل هلال اسود ، ترتدى ثوبا كحليا من قطعتين ، وراحت تقرأ فى كتاب « البنات والصيف » وقد تركت المقعد الذى يفصل بينه وبين على الممشى الضيقة خاليا ، وجلست فى المقعد التالى له ، ووضعت المجلات الأخرى التى كانت تحملها فى الجيب المشقوق فى ظهر المقعد الذى كان أمامها .

وعادت المضيفة تحمل فنجان القهوة وفنجان شاى ، ووضعت القهوة أمام على ، ووضعت الشاى أمام السيدة السمراء التى كانت مسحة من الأسى تكسو وجهها . وأخذ على يحتسى القهوة ولمح من طرف عينه السيدة السمراء تخرج من حافظتها زجاجة صغيرة ،

تضع منها بعض قطرات فى حرص فى الشاى ثم تعيدها الى مكانها .

واسترخى على فى مقعده ، والتقت عيناه أكثر من مرة بعينى السيدة ، وقرأ فى نظراتها نداء احس وقعه فى فؤاده ، كان نداء غريبا على مشاعره لم يعرف تأويله ، وظل حائرا مدة فى تفسيره ، ولم يخطر له على قلب انه نداء يشوبه ظل من الجنس ، فقد كان البريق المشع من عينيها يحرك الجوانب الطيبة فى نفسه .

وهبطت الطائرة فى مطار بنينه ، واسرع على الى الاستراحة ، دون أن يلتفت الى السيدة ، كان الجو حارا ، والمكان مكتظا بالايطاليين والأمريكان ، والمراوح القليلة المتدلية من السقف عاجزة عن تجفيف عرقه المتصبب ، فأخرج منديله وراح يمرره على وجهه ورقبته وقفاه .

وأقبل الجرسون الليبى ووقف أمامه ، فقال على :

ــ قهوة جدجد .

ومس الطلب اذنى شاب جلس بالقرب منه ، فالتفت اليه فى فضول ، وفطن على الى ما فى نظرات الشاب من تساؤل ، فابتسم له وقال :

ــ هذه أول مرة تزور فيها ليبيا ؟

فقال الشاب فى راحة :

ــ نعم ، ولن أمكث فيها طويلا .

ــ الا تشرب شيئا ؟

ــ شكرا .

ــ أعرف أن ليس معك نقود ليبية بعد ، لا تهتم بذلك ، معى نقود ليبية كثيرة ، اننى أعمل هنا من ثلاث سنوات .

واشار على الى الجرسون أن تعال ، ولما جاء قال على للشاب :

ــ أتشرب « بمبه » أم قهوة جدجد ؟ ! .

وبانت الدهشة فى وجه الشاب ، لم يدر ماذا يختار ، ولم يتركه علي لحيرته بل قال :

ــ قهوة جدجد اى قهوة « قدقد » اى سكر « ع الريحة » فما رايك ؟

ــ اهى مثل القهوة المصرية ؟

ــ لا انها قهوة بنها مجروش ، لن تعجبك .. افضـــل لك « بمبــه » .

وقبل ان يقول الشاب شيئا ، قال على للجرسون :

ــ بمبــه .

وذهب الجرسون وقال على للشاب :

ــ سنتناول قهــوة مصرية فى بيتى ، اننى قاطن فى طرابلس بالقرب من فندق مهارى .

وظل وجه الشاب جامدا ، لم يزده على علما بشىء ، انه لم ير طرابلس من قبل ولا يدرى أين يقع ذلك الفندق الذى يتحدث عنه ، وقال الشاب :

ــ اشكر لك دعوتك .

وعاد الجرسون ووضع القهوة أمام على ووضع كوبا به سائل ابيض فى لون اللبن أمام الشاب ونظر الشاب الى الكوب مليا وقال :

ــ اهذه هى « البمبة » ؟ !

ــ ذقها انها لذيذة .

ورفع الشاب الكوب الى فمه ورشف منها فى حرص ثم قال :

ـ لذيذة ؟ يخيل الى اننى شربت هذا الشراب من قبل .

فابتسم على وقال :

ـ انها سوبية .

ورشف على من الفنجان رشفة ، ورفع عينه الى الجرسون وقال وهو يهز رأسه استحسانا :

ـ « باهى » .

واشرق وجه الجرسون بابتسامة عريضة وانصرف راضيا ، وقال الشاب :

ما معنى باهى ؟

معناها « حسن » وقد سمعت فى ليبيا انها كلمة عربية ، ولكننى لا افهم فى اللغة شيئا .

فقال الشاب وهو يضحك :

ـ « ياهى » فعلت .

فقال على وهو مسرور :

ـ لو كانت كلمة عربية لوجب أن تقول : « باهيا فعلت » .

وراح الجرسون يمر على الموائد وهو يعرج ، ولمح على اثار الالم فى وجهه ، فقال له لما دنا منه وهو يشير الى رجله :

ـ ماذا بك ؟

فقال الجرسون وقد أرضاه أن يهتم غريب بأمره :

ـ « كراعى » تؤلمنى ، ارتطمت بمقعد هذا الصباح .

واستأنف الجرسون عمله ، ولما ابتعد قال الشاب :

ـ كراعه تؤلمه ؟ ! ما هى كراعه ؟

ـ ساقه .

ـ الساق اسمها كراع ؟ !

ـ انها من الكارع .

ومر بعض الوقت ، واقبل الجرسون وقال :

ـ ستتحرك الطائرة بعد خمس دقائق .

فقال له على فى هدوء :

ـ واتى .

واخرج من جيبه حافظة نقوده ودفع ثمن ما شربه وما شربه الشاب ، وابتعد الجرسون ، وقال الشاب فى صوت خافت وهو يقدح زناد فكره محاولا أن يفهم معنى الكلمة :

ـ واتى ! واتى !

فقال له على وهو يبتسم :

لا تجهد ذهنك ، انها ليست كلمة عربية ، انها كلمة بربرية ومعناها : أنا مستعد .

وضحك الشاب وقال :

ـ وأنا « واتى » .

وجاء رجل يسعى ووقف فى وسط المكان وصفق ثم قال :

ـ تفضلوا .

ونهض المسافرون الى طرابلس ليستأنفوا رحلتهم ، وسار على والشاب الى الطائرة ، وقبل أن يصعدا فى الدرج التفت على الى الشاب وقال :

ـ لا تنس أنك مدعو لشرب القهوة المصرية اليوم فى بيتى .

ـ شكرا لك .

ـ بعد ساعتين من الملل والفراغ سنحتسى القهوة المصرية معا ان شاء الله .

ـ ان شاء الله .

وغابا فى الطائرة وانطلق على الى مقعده ، والتفت الى السيدة السمراء فألفاها قد اضطجعت فى مقعدها وسقط راسها على صدرها وغابت عن الوجود ، وجعلت تشهق وتزفر فى جهد وقد تفصد العرق من وجهها ، فخف اليها وجلس فى المقعد الخالى الى جوارها وتناول يدها وجعل يدلكها بيديه ثم رفع يده ، وراح يضرب خدها فى رفق لعلها تفيق دون جدوى ، فنادى المضيفة فجاءت مسرعة فقال لها فى لهفة :

كولونيا من فضلك .

وهرولت المضيفة بجسمها الفارع وغابت قليلا فى مقصورتها وما لبثت أن عادت مسرعة تحمل زجاجة الكولونيا ، فبسط لها كفه نصبت فيها الكولونيا ، فأدناها من انفها ثم راح يمسح بيده وجهها وجيدها .

واضيئت اللافتة التى تأمر الركاب بربط احزمتهم ، فلف حزام المقعد حول وسطه ، ومد يده ليلف حزامها حولها ولكنه احجم ، احس كأن رجـــلا آخر يتلبسه يصيح به فى زجر أن لا يفعل ، وانكمش أمام ذلك الصوت الناهى وشلت حركته ، وأشار الى المضيفة أن تربط لها حزامها ففعلت ثم اسرعت الى مقعد خال وجلست فيه ولفت الحزام حول وسطها .

وراحت الطائرة تدرج على الأرض ثم ترتفع فى الجو وهو يدلك يديها فى رفق ويربت على خدها فى حنـــان حتى فتحت عينيها ، ولما رأته ابتسمت له ابتسامة شاحبة ، وترجم البريق المتألق فى عينيها عن شكرها ورضاها .

ورفعت رأسها ، واعتدلت فى مقعدها قليلا ، فقال لها :

ــ كيف أنت الآن ؟

ــ أحسن .

وانتظم تنفسها ، وعادت الحمرة الى خديها ، ونبضت الحياة فى عينيها وظل الهلالان الأسودان اللذان يحدان عينيها من أسفل على حالهما ، ومال نحوها وقال لها :

ــ أهذه أول مرة يحدث لك فيها هذا الذى حدث ؟

فقالت فى نبرات يشوبها أسى :

ــ حدث لى ذلك مرة قبل اليوم ، وقد عرضت نفسى عـلى الطبيب فقال لى ان دورة الدم غير منتظمة ، ولكننى فهمت أن قلبى ضعيف .

ــ ومن أين جاء هذا الفهم ؟

ــ وصف لى أن أتناول أربع نقط من الكورامين الى ثلاث مرات فى اليوم ، فاذا لم يكن قلبى ضعيفا ، فلماذا وصف لى الكورامين ؟

ولم يكن يفقه شيئا فى الطب ، ولكنه أحس رغبة فى أن يدخل الطمأنينة على نفسها الواجفة فقال فى حماسة :

ــ وصف لك الكورامين ليعاون على انتظام دورة الدم ، لقـد وصف لى الطبيب مرة استعمال الكورامين مع أن قلبى سليم ، انه علاج عارض .

وصمت وراح يسأل نفسه : لماذا كذب ، وما الذى دفعه الى هذا الكذب ؟ وقبل أن يسترسل فى حساب نفسه قالت له :

ـ أظن أنك رأيتنى وأنا أضع الكورامين فى الشاى .

ـ نعم .

والتقت عيناها بعينيه ، كانت نظراتها اليه تختلف عن النظرات التى حار فى أمرها ، انها نظرات راضية تدعوه الى الاسترسال فى الحديث الذى ينزل السكينة على قلبها ، بينا كانت نظراتها التى غمت عليه تتوسل اليه أن يخف اليها ليحميها من الغيبوبة التى كانت تزحف لتحجبها عن وعيها .

ورفت على شفتيها بسمة وقالت :

ـ أحسست أننى سأغيب عن الوجود قبل ان تهبط الطائرة وتمالكت ، حتى اذا ما استقرت الطائرة على أرض المطار اسرعت الى غرفة المضيفات وتمددت فى سرير لأيسر للدم الصعود الى رأسى ، وقد أحسست بالراحة فعلا ولكن ما أن عدت الى الطائرة حتى شعرت بالاغماء يعاودنى .

ـ لعلك أجهدت نفسك فى الأيام الأخيرة .

ـ عدت بالطائرة من الاسكندرية الى القاهرة ، ومن القاهرة ركبت هذه الطائرة .

فقال على فى دهش :

ـ انت مصرية ؟

فهزت رأسها أن نعم ، فعاد على يقول فى انكار :

ـ ان من يراك يحسبك سورية .

ـ حقا ؟ !

ـ انت ســــــورية على الرغم من سمرة بشرتك ، التقاطيع .. الأنف .. الدم .. حتى لهجتك .

فقالت وقد أشرق وجهها بابتسامة حلوة :

ـ ابى مصرى وأمى فلسطينية .

ـ واين ولدت ؟

ـ فى القدس .

ـ واين أبوك الآن .

فقالت فى بساطة :

ـ مات ولحقت به أمى .

فقال على مواسيا :

ـ هذا حالنا ، وأنا ايضا مات ابى ولحقت به امى .

فقالت فى مرارة :

ـ ان كان ابوك وأمك قد ذهبا فقد بقى لك وطنك ، أما انا فلا وطن لى .

فقال على وقد اتسعت عيناه :

ـ ألم تقولى ان أباك مصرى ؟

ـ ولكننى ولدت فى القدس ، وعشت فيها وتفتح شبابى عليها، انى فلسطينية ، ولقد عشت النكبة وذقت مرارتها ، وتجرعت كأس التشريد ، اننى مذ فررت من وجه الطغيان أهيم على وجهى تائهة فى هذه الدنيا الواسعة ، وكلما مرت الأيام ازداد احساسى بوحدتى بشاعة ، وأتصور احيانا أن العالم كله يمقتنى ، هدفه

أن يسحقنى ، وياليته يقضى على دفعة واحدة لأستريح ، ولكنه يتفنن فى تعذيبى ، اننى لا اظن ان الزمن قد عذب أحدا كما عذبنى .

فقال لها على فى اشفاق :

ــ أوهامك تصور لك ذلك ، انت مريضة بالوهم .

فابتسمت فى استخفاف وقالت :

ــ ياليت .

ــ الكورامين .. ضعف القلب .. قسوة الحياة .. كلها أشياء من خلقك أنت .

فقالت وقد غامت صفحة وجهها بسحابة من الأسى :

ــ لولا أننى لا أريد أن أثقل عليك لقصصت عليك قصتى .

فقال على فى صدق :

ــ انه لمما يشرح صدرى أن أصغى اليك .

ــ ولكن قصتى لا تشرح الصدر .

ونظر اليها طويلا دون أن ينبس بكلمة ، وشرد مفكرا ، كان يبحث عن الألفاظ التى تترجم عن الاحساس الجياش الذى يملأ جوانحه ، وضاق بالصمت الذى ساد بينهما فقال :

ــ قد تستريح النفس الى حديث فياض بالأسى ، وتنفر من حديث زاخر بالمرح ، العبرة فى أن يتفتح القلب للقلب ، وقلبى الآن متفتح لكل ما يخرج من بين شفتيك .

وأسبلت جفنيها على عينيها ، بهرها ذلك البريق المتألق فى عينيه ، وظل يرمقها فاستشعر ميلا اليها ، انها قريبة اليه ، أقرب من ذلك الفراغ الذى يفصل بين مقعديهما ، وقال :

ـ قولى .. كلى آذان .

والتفتت اليه بكل جسمها ، وراحت تقص قصتها فى صوت مشوب بأسى ، ينفذ الى القلب ويحرك مواجع النفس ، قالت :

ـ كان بيتنا فى القدس ، وكانت مدرستى فى شارع الملك داود ، فكنت أذرع الشارع انا وصويحباتى فى الصبح وفى العصر ، ومرت الايام والشهور والسنون زاخرة بالغبطة والآمال يزيد جمالها ما تضفيه عليها قلوبنا الشابة الخلية النابضة بأروع مشاعر الحياة .

وجاء اليهود الأفاكون الى الوطن الحبيب من مشارق الأرض ومغاربها فى حماية دولة الانتداب ، وبعد أن كانوا أذلة ، طغوا وبغوا واشتدت مطالبتهم بتنفيذ وعد بلفور المشئوم ، وقمنا للدفاع عن كياننا ولكن الانجليز كانوا يضربون على أيدينا بشدة ، ويتركون الافاكين يرتكبون الجرائم فى حمايتهم .

واعلن الانجليز انسحابهم من فلسطين بعد ان احكموا تدبير مؤامرتهم مع اليهود ، فراحت فلسطين ترقص على فوهة بركان ، وكثرت الاشتباكات والاغتيالات .

وفى ذات صباح كنت اجتاز شارع الملك داود ، كنت قد بلغت التاسعة عشرة ، واذا بشابين يهوديين يعترضان سبيلى وقال احدهما : « تعلمين ان فتاة يهودية قتلت أمس ، قتلها العرب » وارتجفت وتحركت لأفر من وجههما واذا بصوت آخر يقول : « قفى ، ستموتين الآن كما ماتت اختنا بالأمس » وأخرج مسدسه وصوبه الى وهو يقول : « صلى » ، ولم أفعل شيئا ، تملكنى رعب شديد ،

واحسست ان راسى فراغ ، تعطل تفكيرى ، وان كانت مشاعر الخوف تكاد تقضى على .

وسمعت صوت انطلاق رصاصة ، وانهرت على الأرض كما ينهار الجدار ، وقر فى وجدانى اننى مت ، وغبت عن الوجود . وتقضت لحظات وأنا لا احس شيئا ، وبدات المشاعر تعاود نبضها فى جنباتى ، وفتحت عينى وأنا خائفة ، ورايت اشباحا تتراقص واخذت الصور تتضح لعينى شيئا فشيئا ووعيى يعود الى ، ففطنت الى اننى مستلقية على الأرض وان راسى على ذراع رجل ، وان الناس التفوا حولى .

ونهضت اتحسس مكان الرصاصة فى جسمى ، وكم كانت دهشتى عندما اكتشفت أنهـا لم تصبنى ، وتطوع كثيرون لقص ما حدث على مسامعى ، وقد فهمت من رواياتهم أن دورية بريطانية ظهرت فى الطريق فى الوقت الذى صوب فيه الجبان مسدسه الى ، وانه ارتبك فطاشت رصاصته ومرت بجوارى وأنهما أسرعا الى سيارة كانت فى انتظارهما وفرا هاربين .

وصمتت قليلا ثم قالت :

ـ ليتنى قتلت فى ذلك الصباح واسترحت من العذاب الذى كان فى انتظارى ، بعد تلك الحادثة نسف فندق الملك داود وانسحب الانجليز بعد أن تركوا بعض أسلحتهم لليهود ، وبدأت المذابح ودخلت الجيوش العربية لانقاذ فلسطين ، وكانت خيانات الملوك فسقطت القدس الجديدة فى ايدى الصهيونيين وكان علينا أن نترك الدار التى

نشأت فيها ، ونفر من الموت الذى يتعقبنا ، وهمنا على وجوهنا مرعوبين ، وأصبحنا لاجئين بعد أن كان لنا بيت وأهل ووطن .

واسبلت جفنيها على عينيها لتخفى الحزن الدفين الذى تحرك واحتشد فى مقلتيها وقالت فى مرارة :

ــ وفجأة وجدنا أنفسنا فرعا بلا أصول ، عضوا أبتر انفصل عن الجسد ، وكنا على الرغم من الشقاء الذى نتجرعه أسعد حالا من اخواننا ، كانت جنسية أبى جواز المرور لنا ، فانطلقنا الى مصر وحططنا رحالنا فى الاسماعيلية .

وبدأ أبى من جديد ، وانها لقسوة أن تضطر الظروف من كان يعيش فى بحبوحة مثله أن يبدأ من جديد ، واتضح أن الأمر ليس فى مثل السهولة التى صورها لنا أول ما هبطنا الاسماعيلية ، وفطنت ان الواجب على أن أعمل لأساعد أبى وامى ، ووجدت عملا فى مدرسة ومنذ ذلك الوقت أصبحت مدرسة تعلم الفتيات الحساب .

وذقت طعم الاستقرار فى الاسماعيلية ، ولكن كان قلبى متعلقا ببيتى الذى كان هناك يرزح تحت ذل احتلال الصهيونيين .

وعرفته فى المدرسة ، كان مدرسا للغة الانجليزية ، وكان وديعا خجولا ، اذا تحدث الى يطرق الى الأرض ويقضم أظافره بأسنانه كالأطفال ، وقد مست وداعته وترا حساسا فى نفسىْ ، وخفق قلبى بحبه ، وقد عجبت لذلك الاحساس الجميل الذى تدسس الى ظلام روحى فى غفلة منى .

وافزعنى أن قلبى قد خفق بالحب على الرغم من المحنة التى نعيش فيها ، وحاولت أن أقهر ذلك الشعور وأن اقبره ، ولكن

الحياة أقوى من أتراحنا ، فطفا حبى فوق أحزانى ، وتبدى فى لفتاتى وحركاتى ونظراتى ، حتى ان أمى فطنت الى التبدل الذى اعترانى ، وسألتنى فى حنان عن حياتى وعن شعورى نحو زملائى ، فأفضيت اليها وأنا مطرقة أكاد أذوب خجلا بسر قلبى ، ونظرت اليها من بين اهدابى المسبلة لأقرأ الغضب فى وجههـــا ولكنها كانت متبسطة الأسارير تتألق نظراتها بالغبطة ، وطفت سعادتها حتى انها ضمتنى الى صدرها وقبلتنى .

وشد أزرى رضا أمى ، فأشرقت نفسى وأقبلت عليه أحادثه وأنا نابضة بالحب والحنان ، فاستراح الى وحلت عقدة لسانه ، وكشف عن مكنون صدره ، قال : انه يحبنى وانه لا يستطيع العيش بدونى ، وانه يريد أن يتخذنى زوجة ويود أن يسمع رأيى .

وغردت بلابل نفسى ، وتفجرت ينابيع سعادتى . وصفت الحياة فى عينى ، وطفرت دموع الفرح من مقلتى ، ولم تتحرك شفتاى بكلمة ، وان نطقت كل ملامحى وخلجات ذاتى ترحب بذلك العرض الكريم ، وأحس السعادة التى غمرتنى ، وهنأ قلبه بحديث قلبى ، فقال فى صوت خافت ذاخر بالغبطة : شكرا .. شكرا .

وتم زواجنا ، ومرت الأيام وأنا هائمة فى دنيا كلها غبطة ، وفجأة استيقظت من الحلم الجميل على موت أبى . حزنت وبكيت ولكن زوجى مسح بيده الحنونة دموعى ، وبرأت روحى من أحزانها بما سكبه فيها من عطف وحنان ، واستأنفت حياتى أعب كئوس سعادتى وتصرمت سنون وماتت أمى فنكأ موتها جرح نفسى ، عادت نكبتنا تتمثل لعينى ، صرت أراها فى يقظتى وفى نومى ، ويا طالما رأيت فى

احلامى الشابين الصهيونيين وهما يستوقفانى فى شارع الملك داود ويصوب احدهما الى مسدسه فأهب من نومى مفزوعة وأنا أصرخ فى رعب وهلع .

كان عزائى يوم موت ابى انه دفن فى ارض وطنه ، أما أن تموت امى مشردة دون أن تلفظ آخر انفاسها فى القدس فذلك الذى كان يقطع نياط قلبى ، واصبحت حليفة احزانى ، وبذل زوجى ما فى طوقه ليرفه عنى ، ولكن جرح فؤادى كان أعمق من أن يلتئم ، وقبحه استسلامى لاحساساتى السوداء .

آه لو كنت ادرى ما يخبئه لى قدرى لقاومت مشاعرى وغمرته بكل ما تزخر به نفسى من حنان ، ولكن لم يخطر لى على قلب أن الزمن يدخر لى أسوأ ما فى جعبته من مفاجآت .

كانت اسرائيل سبب نكبتى الاولى وكانت هى سبب فجيعتى الثانية واننى اعيش الآن على أمل واحد ، أن أرى زوال تلك الباغية التى جرعتنى أمر كئوس الحياة ، وأن يتلوى طغاتها من الألم على ما اقترفوا من آثام .

نسجت اسرائيل خيوط المؤامرة على مصر ، وتم اتفاق الأوغاد على الغدر بها ، وتحركت اسرائيل على الحدود ، وحاول الانجليز والفرنسيون أن يطعنونا من الخلف ، وشنت الطائرات علينا الغارات ، ولا أدعى اننى قابلت تلك الغارات وأنا رابطة الجأش ، كنت أرتجف هلعا واصيح محمومة استنزل اللعنات على الغادرين ، فقد كنت اخشى ان ينزل بوطن ابى ما نزل بوطن أمى ، وأن نهيم على وجوهنا جميعا مشردين .

كان اذا ما انتشر ازيز الطائرات يهرع الى ويضمنى الى صدره فى حنان ليذهب عنى روعى ، ولكننى كنت انتفض فى احضانه وانا اسب والعن واصيح ، وهو يحاول ان ينفث فى الاطمئنان بكلماته التى يسكبها فى اذنى .

وفى الليلة المشئومة استيقظت من نومى مفزعة على اصوات القنابل الهابطة من السماء ، ففتحت باب غرفتى وانطلقت اعدو فى الطريق دون وعى لا الوى على شيء ، ولا اعرف اين اتوجه ، وهب من نومه وراح يعدو خلفى ويناديني والقنابل تتساقط حولنا ، وصكت اذنى صرخة مرعوبة ثم صوت انهيار ، وعلى الرغم من الهلع الذى استبد بى ، احس قلبى ما حدث وفى مثل لمح البصر تمثلت لذهنى الفاجعة ، فانقشع خوفى فجاة ووقفت والتفت خلفى فرأيته يتلوى من الالم ، فعدت اليه ونظرت ، فاذا بالدماء تتفجر من جراحه فارتميت فوقه احاول ان اسد بيدى ينابيع الدماء المتدفقة دون جدوى ، وجن جنـــونى فجعلت اصيح وانادى واتلفت وضاعت صيحاتى بين هزيم القنابل المدوية .

وسكن كل شيء ، حتى قد سكن عن الحركة ، واخفيت وجهى فى صدره الغارق فى الدماء وانا ابكى وانتحب واختلطت دموعى بدمائه وتمنيت فى تلك اللحظة لو ان الطائرات تعود وتصوب الى كل ما تحمل لاذهب معه ، فقد كان آخر خيط يربطنى بدنيا الضوارى التى لا يزال يحكمها قانون الغابة .

ولم اطق العيش فى مصر بعده ، فرحت اسعى الخروج منها ، وواتتنى الفرص فوجدت عملا فى ليبيا ، فحملت احزانى على ظهرى وانطلقت اليها .

وصمتت وظل على يرقبها وقد نبتت مشاعر جديدة فى جوفه ، كان يستشعر عطفا نحوها ويحس انها صارت قريبة الى قلبه ، حبيبة الى نفسه . وأراد أن يظل حبل الحديث موصولا بينهما ، فقال :

ــ وماذا تعملين فى ليبيا ؟

فقالت دون أن تنظر اليه :

ــ ناظرة مدرسة ابتدائية .

وقال وقد تهدج صوته :

ــ أتعيشين فى طرابلس وحدك ؟

ــ نعم ، وبيتى فى شارع القاهرة ، ولم اسكن فى هذا الشارع عفوا ، فقد صممت على أن اقطن فيه ليذكرنى دواما بماساة حياتى .

ــ اذا كنت ترغبين فى أن تظل مأساة حياتك حية فى نفسك ففيم كان هربك من مصر ؟ !

ــ اننا نهرب دواما من مسرح الفاجعة ، ولا نفر من ذكراها .

ــ ولماذا لا تحاولين أن تنسى ..

ولم تدعه يكمل حديثه ، وقالت فى مرارة :

ــ هيهات أن ينسى المرء عشه السعيد الذى تقوض .

ــ لا تزالين شابة . لماذا لا تحاولين ان تبنى عشا سعيدا آخر ! ..

فابتسمت ابتسامة باهتة وقالت :

ــ ان كان شعرى لا يزال أسود ، فان الشيب قد نبت فى أغوار نفسى وجال وجدانى .

فقال خافق القلب وقد ازداد منها قربا :

ـ قطرات من الحب كفيلة بأن تعيد سواد الشعر الى وجدانك .

فقالت وهى تبتسم فى استخفاف :

ـ سيكون سواده كسواد الصبغة ما يلبث أن يذهب .

ـ انك لم تشيخى ، ولكن نفسك قد جرحت ، والأيام هى البلسم الشافى للجروح .

فلوت شفتها وقالت فى مرارة :

ـ لو كان هذا حقا فسيبرأ جرح قلبى بعد أن تمتد اشتعال الشيب من اعماقى الى راسى .

فقال فى انفعال :

ـ تتحدثين كأنما الشباب والجمال المادى كل شىء ، الحب الصحيح هو حب الروح ، وما أكثر الذين سيعشقون روحك لو فتحت لهم قلبك وخرجت من قوقعة ذاتك .

فقالت فى زراية :

ـ شكرا .

ولم تفتر حماسته ، وقال :

ـ أنت وحيدة فى طرابلس وأنا وحيد ، أتسمحين لى بزيارتك .

فقالت فى ترحيب :

ـ ليتك تفعل .

ـ قلت ان منزلك فى شارع القاهرة ..

ـ أمام محل منصور ..

وابتسم وقال :

ـ تحدثنا طويلا دون أن يقدم أحدنا نفسه للآخر ، أنا على طه

محاسب قانونى ، لى مكتب فى طرابلس وآخر فى بنى غازى وانا دائم التنقل بينهما .

فقالت وهى تبتسم :

ــ تشرفنا .

وصمتت ولم تذكر له اسمها ، ولم يكن فى حاجة الى معرفته ، فهو يحس فى تلك اللحظة ان روحها انسابت بين جوانحه فأيقظت أرق مشاعره الهاجعة . وأضيئت اللافتة التى تأمر الركاب بربط احزمتهم ، فلف كل منهما حزامه حول وسطه ومال نحوها بكل جسمه وادنى منها أذنه ليتمكن من سماع حديثها ، ولكن كلماتها ضاعت فى هدير مراوح الطائرة التى علا ضجيجها .

واستقرت الطائرة على الأرض ، فالتفت اليها وقال :

ــ حمدالله على السلامة .

ومال وجذب حقيبته الصغيرة من تحت الكرسى الذى أمامه ثم نهض وفسح لها طريقا ، ومدت يدها لتحمل حقيبتها المنتفخة ولاح فى وجهها انها قاست من حملها ، فخف اليها وحمل الحقيبة عنها وهى تقول :

ــ عفوا .. عفوا .

فقال وهو يبتسم :

ــ باهى .. باهى .

وسارت وهو خلفها حتى اذا هبطا الى أرض المطار انطلقا جنبا الى جنب وهما يتحدثان ، واحس على يدا على كتفه فالتفت خلفه ، فاذا بالشاب الذى وعده بفنجان قهوة مصرية يشربه فى بيته يبتسم

له . كان على قد نسيه فى غمرة نشوته بالحديث الذى كانت تسكبه فى اذنيه . انه كان صادق الشعور سليم القلب ساعة أن دعاه ، فما دار فى خلده ان يطرأ على حياته كل ذلك التغيير فى ساعتين حسب انه سيقضيهما فى تثاؤب وملل ، اما الآن فقد زحف الضيق الى صدره وان لم تبد على وجهه آثاره .

والتصق الشاب به كأنما يحتمى به ، فما كان يدرى الى اين يذهب وماذا يفعل ، وانتهت الاجراءات ، وخرجوا الى سيارة الشركة التى كانت تنتظرهم ، وجلست واسرع بالجلوس الى جوارها مسافر آخر ، فأخذ على يرمقه فى شزر ثم اتخذ مكانه خلفها وهرع الشاب اليه وجلس الى جواره .

وانطلقت السيارة الى المدينة ، وقال الشاب لعلى وهو يبتسم :

ـ عزمت على أن أنزل فى الفندق القريب من بيتكم . لقد ذكرت لى اسمه ولكننى نسيته ما اسمه ؟

ـ المهارى .

وقال الشاب دون أن يفطن الى أن عليا يريد ان يظل فى رفقة نفسه ، يحلل مشاعره التى تفجرت بغزارة فى اعماقه بعد حديث السيدة الذى مس اوتارا مرهفة الحس فى وجدانه :

ـ وهل « المهارى » كلمة عربية ؟ .

فقال على فى نبرات تنم عن رجائه له أن يسكت والا يعاود الحديث :

ـ انها كلمة ايطالية ومعناها « الهجين » .

وقال الشاب ليظل حبل الحديث موصولا بينهما :

ــ قطعنا مسافة طويلة ولم نبلغ بعد المدينة ، فكم كيلومترا يبعد المطار عن طرابلس ؟

ولم يحر على جوابا ، ونظر اليه الشاب فألفاه شارد اللب ، فاحترم صمته مرغما .

وبلغت السيارة المدينة . وهبط منها ركابها ، وسر عليا انها وقفت تنتظر هبوطه ، فخف اليها يودعها وهو خافق القلب ، يشع من عينيه بريق أخاذ ، ومدت له يدها مصافحة ، فأسرع واحتوى يدها في يده ، وضغط عليها فى خفة لتسرى المشاعر الموارة الموبدة بين جنباته اليها ، وقال فى رقة :

ــ مع السلامة .

وقالت فى هدوء :

ــ منتظرة زيارتك .

وتدفق الدم حارا الى وجهه ، وقال فى صوت متهدج :

ــ ان شاء الله .

وسارت وهو يرمقها ونشوة تدغدغ كل حواسه ، واحساس بالرغبة فى أن يعدو خلفها ليكون الى جوارها دواما يملأ نفسه .

وغابت عن عينيه ، ودار على عقبيه فألفى الشاب قد وضع حقيبته بين رجليه ووقف ينتظره ، فابتسم له وقال :

ــ تعال .

وركبا عـــــربة حنطور تظللها مظلة كبيرة مخططة من مظلات الشواطىء ، وراح الشاب يتلفت يملأ عينيه بالمحال والمبانى والغادين

والرائحين ، وسارت العربة الى الكورنيش ، فصاح الشاب في فرح :
ـ لكأننا في الاسكندرية ، في الميناء الشرقي على التحديد .

وظل الشاب في تلفته دون أن ينبس على بكلمة ، كان غارقا في بحار من الأفكار ، ووقفت العربة امام مبنى أبيض له مظلة اقيمت على أعمدة مستديرة رفيعة ، اصطفت تحتها بعض سيارات وفوق المدخل شيدت بناية مثمنة الشكل في قاعدتها نوافذ ، وفي منتصف المثمن قامت اسطوانة تنتهي بنصف دائرة ، وكتب في أعلاه بالعربية والايطالية « فندق المهاري » وهبط الشاب وهو يحمل حقيبتين ولحق به على ، وأراد الشاب أن يقول شيئا ليذهب الوحشة التي بدا يحسها فقال :

ـ عربة جميلة .

فقال له على :

ـ انها تسمى هنا « كاروسة » .

وذهب علي وحجز له غرفة ، وانتظره في الردهة حتى ينتهي من وضع حوائجه ويعود اليه ، وأخذ على يذرع المكان وهو برم بالانتظار ، انه قد عرض على الشاب أن يصحبه الى بيته ليشرب فنجانا من القهوة لأن حياته في طرابلس كانت فارغة ، وكان في حاجة الى من يؤنس وحشته ، اما بعد أن قابلها فقد ذهبت عنه وحدته ، وملأت عليه حياته .

وعاد الشاب وصحبه على الى بيته ، ورحب به ، وقدم اليه قهوة مصرية ، وراح الشاب يتحدث وهو غائب عنه ، وفطن الشاب الى شروده فاستأذن في الانصراف منفعلا بتعبه وحاجته الى الراحة .

وبقى على فى البيت مع طيفها ، يتمثل الحديث الدائر بينه وبينها ورن فى سريرته صوته وهو يقول لها : « لماذا لا تحاولين أن تبنى عشا سعيدا آخر ؟ » فضرب كفه بقبضته وقال : « نعم ، لماذا لا تحاول ان تبنى عشا سعيدا آخــر ، فلتحاول وساعاونها على تشييده ، اننى لم أفكر من قبل فى أن اتزوج ، ولكننى الآن اتمنى من كل قلبى أن تقبلنى زوجا ، ان روحى قد احبت روحهــــا .. عشقتها .. هامت بها .. وجدت اخيرا ما كانت نفسى تشتهيه وتهفو اليه » .

وارتمى فى فراشه وسبح فى عالم من الرؤى المذاب ، وتردد فى جوفه صوتها وهى تقول : « ان كان شعرى لا يزال أسود ، فان الشيب قد نبت فى أغوار نفسى وجلل وجدانى » وهب من رقاده ثائرا وهو يقول : « لا .. لا .. انها واهمة ، وهى دائما تضخم أوهامها ، لقد اصبت كبد الحقيقة عندما قلت لها : انها مريضـــــة بالوهم . سأشفيها من وهمها هذا ، ستذوب ثلوج مخاوفها تحت شمس حبى ، سأغذيها بالحنان حتى أقوى روحها ، واعيد اليها ثقتها بنفسها التى زعزعتها الأحداث » .

وعاد مرة أخرى الى فراشه وتمدد فيه وهو يغمغم : « اننى أحبها .. أجل أحبها على الرغم من أن عمر معرفتى بها لا يزيد على ساعتين ، ان مشاعرى لا يمكن أن تخدعنى وانا فى مثل سنى ، فقد تجاوزت مرحلة الطيش والاندفاع » .

وتقلب فى فراشه ، وراح يفكر فى الأرملة التى ملكت كل حواسه وقرر رأيه على أن يذهب اليها فى الغد يشرح لها فى بساطة حقيقة

مشاعره ويطلب منها الزواج ، وعلى الرغم من انه قد استراح الى ذلك القرار ، فقد جافاه النوم ، واستمر طوال الليل يجتر احداث الساعتين اللتين امضاهما معها وهو منعم بالغبطة والانشراح .

وتصرم الليل ، واقبل النهار ، فراح يتأهب للذهاب اليها خافق القلب ، يحس كأنما قد خلق خلقا آخر ، ولما أتم تأنقه هبط فى الدرج مسرعا ، وهرع الى سيارته ، وانطلق بها الى شارع القاهرة .

ووقف أمام محل منصور وقد اشتد وجيب قلبه ، ومشى الاضطراب فى أوصاله ، ونظر فى قلق الى البيت المواجه للمحل فألفاه من طبقة واحدة تعلو الدكاكين ، فهبط من سيارته ومرر لسانه على شفتيه ليذهب عنهما الجفاف الذى بدأ يحسه ووقف برهة يسترد أنفاسه المبهورة ويجمع شتات أمره ثم سار الى البيت لا يلوى على شىء ولا يلتفت خلفه .

وطرق باب الشقة طرقة خفيفة كانت اخفت فى اذنيه من طرقات مشاعره الصاخبة المدوية ، ومرت لحظات ثم فتح الباب عنها ، كانت ترتدى ثوبا منزليا بسيطا ، وشعرها مسترسل على كتفيها ، ولما رآته تألقت عيناها ببريق خاطف ، وانفرجت شفتاها عن بسمة عذبة وقالت :

ـ أهلا وسهلا .. تفضل .

وقادته الى غرفة الاستقبال ، كان أثاثها بسيطا ولكنها كانت منسقة تنسيقا جميلا ينم عن حسن ذوقها ، وجلس وتحركت لتبدل ثوبها وهى تقول :

ـ لحظة واحدة من فضلك .

فقال وهو يزحف حتى حافة المقعد :

ــ اعرف انني جئت في وقت غير مناسب ، ولكن عذرى أننى لم استطع الصبر على ما أريد أن أفضى به اليك .

واشار الى مقعد أمامه وقال :

ــ اجلسي أرجوك ، ولن تستغرق زيارتي الا دقائق قليلة .

وقرأت في عينيه التوسل فجلست صامتة ، ونظر طويلا إلى الهلالين الأسودين اللذين يحدان عينيها من أسفل ثم قال :

ــ لم افكر في شيء بعد مذ افترقنا حتى الآن الا فيك .

وأحس أنها جفلت وان جاهدت لتخفى انفعالها ، فقال في هدوء وان تهدج صوته :

ــ ارجوك أن تسمحي لى أن أعبر عن نفسى في صدق وبساطة ، انني لم أذق طعم النوم البارحة ، أمضيت ليلي أفكر في كل كلمة خرجت من بين شفتيك وأحلل عواطفي فاهتديت الى أنني قد وجدت ضالتي ، لقد كنت عازفا عن الزواج ، أما بعد إن قابلتك فانى أشتهيه وأرجو أن تقبليني زوجا .

وسرت في جسمها قشعريرة ، وقالت في صوت مضطرب :

ــ ان مأساتي قد مست مكامن العطف منك ، انك تعطف على .

فقال في حماسة :

ــ أبدا ، انني قد أحببتك .. أحببتك حبا صادقا ، وانه لما يشرفني أن تكوني لى زوجة .

فقالت في دهش :

ــ أتعرض الزواج على سيدة لا تعرف حتى اسمها ؟!

فقال وهو يدنو منها :

ـ وما يهمني من اسمها اذا كانت روحي عشقت روحها ، اذا كنت قد أحسست انني لها وانها لي ، انا واثق اننا سنسعد معا ، لا تستسلمي ليأسك ، حاولي ان تعاودي بناء عش جديد وان تملئيه حبا وسعادة ، انت زاخرة بأجمل ما في الوجود من مشاعر ، اسعدي بها ، حرام عليك أن تحطمي هناءك وهنائي .

فقالت له في انفعال :

ـ آسفة ان كنت لم اقدم لك نفسي بالامس ، انا جاكلين توفيق ، انا مسيحية وأنت مسلم .

ـ حتى هذا لا يحول بيننا ، أنت مؤمنة بالله وأنا مؤمن بالله ، الا يكفي هذا ؟ أجل يكفي أننا مؤمنان وأن روحينا قد ائتلفتا ، أقسم لك بحبي أن روحي لم تنجذب ابدا الى روح كما انجذبت اليك ، اقبلي ما اعرضه عليك أرجوك من أجلي ومن أجلك .

فقالت وقد اطرقت وأسبلت جفنيها على عينيها :

ـ آسفة ، لن أتزوج ابدا ، سأظل ما حييت ارملة من فلسطين .

فقال في انفعال :

ـ ان كل ما مر بك وهم من الأوهام ، أضغاث احلام اما الحقيقة فهي انني لك وانك لي ، لقد وجدنا نفسينا فلماذا نضيعهما .

ورأى الدموع تنهمر على خديها فعقد لسانه لم يكن يدري أهي دموع الفرح ؟ ! أهي دموع الأسى ؟ ! أجرح شعورها لما قال لها ان كل ما مر بها وهم من الأوهام ، وجعل يرمقها في قلق فألفاها تمد له يدها وتقول :

ـ ان كنت تبغى صداقتى عدنى الا تعـود أبدا الى هـذا الموضوع .

وظل ينظر الى اليد الممدودة اليه وهو حائر أيرفضها ؟ ! .. ايقبل شرطها الجائر ثمنا لصداقتها ، انه أصبح لا يستطيع العيش بدونها ، يكفيه ان يكون دواما بالقرب منها والفى يده تمتد الى يدها وتصافحا ، ولم تكتف بذلك بل قالت :

ـ قل أقسم بالاله الذى أومن به ألا أعـود أبدا الى هـذا الموضوع .

فقال فى صوت خافت زاخر بالأسى :

ـ اقسم بالله العظيم الا اعود أبدا الى هذا الموضوع .

واطرق ساهما ثم نهض مستأذنا ، فقالت له وهى تودعه :

ـ تفضل فى أى وقت ، بيتى مفتوح لك .

وهبط الى الشارع ولم يتجه الى سيارته ، فقد راح يضرب ما فى الطرقات على غير هدى ، وهو ساخط على نفسه لأنه قبل أن يقسم ذلك القسم الغليظ بعد أن وجد من عشقتها روحه وخفق بحبها قلبه ، ولم ينقشع غضبه الا بعد أن راح يؤكد لنفسه بأنه سيحنث فى قسمه لو قبلته يوما زوجا لها ، وهو يأمل كثيرا فيما ستجرى به المقادير ، فلم يكن لقاؤهما عبثا ، وانها لقسوة أن يكتب عليه أن تصبح ليلة عرسه ، مأتم حبه .

العودة

غرفة خالية الا من سرير سفرى علاه الصدأ ، فوقه حشية تنم عن رقة حال ، ممدودة فوقها امرأة عجوز ذابلة ، مسبلة العينين ، بيضاء الشعر ، متجعدة الوجه ، يرتفع صدرها وينخفض كمنفاخ ، والى جوار السرير كرسى من خشب ، جدلت قاعدته من الخوص ، وجلست فوقه امرأة بيضاء سمينة ، مشى الشيب فى شعرها ، كانت مطرقة الرأس ، فى وجهها سهوم ، وفى قلبها هموم ، وفى رأسها ذكريات أيام سعيدة ، تراكمت فوقها رواسب مآس قاسية ، وأحزان ثقيلة ، ومرارة عزبة وتشريد .

واستشعرت المرأة الممتلئة جفافا فى حلقها ، وطعم الصاب فى فمها ، وهم يكاد ينقض ظهرها ، فزفرت زفرة كادت تلفظ فيها ذوب نفسها ، وتململت فى جلستها ، ونظرت من بين أهدابها المسبلة الى أمها المسجاة أمامها فهاجت أشجانها ، وترقرقت فى مآقيها الدموع .

وزحفت الى خيالها مشاهد نكبتها ، رأت أمها وأباها وأختها يخفون اليها مفزوعين وهم يتصايحون يحثونها على الهرب ، فهرعت

اليهم وهى تكاد تموت من الخوف ، وغادروا الدار مذهولين ، يهرولون فى جوف الليل وهم يتلفتون ، والمدافع تقصف ، والرصاص يئز فى كل مكان ، وصفحة الماء تلمع بألسنة حمراء سرعان ما تخبو لتأتلق السنة حمراء أخرى ، وتمتزج بهزيم الطلقات صرخات مرعوبة ، وسقوط اجسام وانين خافت ، فيكاد الهلع يخلع قلوب الهاربين الذين لا هم لهم الا النجاة بأرواحهم .

وخيل اليها ان قذيفة مدفع اصابت مئذنة العجمى ، وان الأنقاض ستنهار فوق راسها ، فاذا بقوة تدب فى ساقيها بعد ان كادتا ان تخذلاها وتسقط مغشيا عليها من الأعياء .

انها لا تدرى كيف جرت وانها لتعجب كيف استطاعت امها ان تقطع كل هذا الشوط حتى بلغوا أقرب بيارة ، وما كادوا يلتقطون انفاسهم حتى راحوا يستأنفون الفرار من الغدر الذى يترصدهم . وخلفوا يافا وراءهم ، وبدات رحلة الذل والهوان والتشريد .

عشر سنوات تقضت مات فيها الأب وتزوجت الأخت وبقيت هى تكافح لتعول امها وتكسب ما تمسك به الرمق ، لقد كانت امها عبئا عليها ولكنها الساعة لا تستطيع أن تتصور كيف تحتمل الحياة بعدها اذ كتب عليها أن تموت ، انها أليفة وحشتها وآخر ما تستنشقه من عبير الوطن .

ومس اذنيها طرق خفيف على الباب فقامت وسارت على أطراف اصابعها وجسمها المترهل يهتز ، ومدت يدها تصلح الشعرات البيض التى تهدلت على جبهتها ، وفتحت الباب فألفت الطبيب امامها ففسحت له الطريق .

ودخل الرجل ، وقال فى صوت خافت :

ـ كيف حالها الآن ؟

ـ نامت بعد أن ظلت تعتب على عائشة وفاطمة وزينب .

ـ وما سبب هذا العتاب ؟

فقالت فى أسى :

ـ لأنهن لم يزرنها فى مرضها .

ـ ولماذا لم يزرنها ؟

فقالت وهى تشيح بوجهها عنه ، حتى لا يرى الأسى الذى ارتسم فى عينيها :

وكيف يزرنها ؟ !

ـ لقد كن جاراتها فى يافا .

وتقدم الطبيب وقد لزم الصمت ، ووصل الى حيث كانت الأم راقدة ، وراح يفحص عنها ، واحست به ففتحت عينيها ، فقال لها :

ـ كيف انت الآن ؟

فقالت فى صوت واهن :

ـ الحمد لله .

والتفتت الى ابنتها وقالت :

ـ قدمى الكرسى للدكتور ليستريح .

ـ ثم عادت تنظر الى الدكتور وتقول :

ـ آسفة . ليس عندنا هنا مقاعد مريحة ، كنا نملك اشياء كثيرة طيبة فى يافا .. كان لنا بيت كبير فيه أثاث فاخر ، وكانت عندنا اكثر من خادمة ، وكانت لنا دار للسينما ، وما اكثر الأصدقاء

الذين كانوا يزوروننا كل ليـلة ، كان أصدقاء زوجى يملأون القاعة الواقعة فى الطبقة الأولى ، وكانت صاحباتى يقضين الأمسيات معى فى الحريم ، وكانت ..

وصمتت ، فقد كان الطبيب يدفع فى بطء ما فى الحقنة فى الوريد ، وأخرج الابرة فى حرص ، ولم تنبثق قطرة واحدة من الدم . ونظرت اليه فى تساؤل ، وقرا فى عينيها الذابلتين أنها تسأله عن حالها ، فقال لها وهو يحاول أن يبدو هادئا :

ــ انت بخير .

فقالت فى ضعف :

ــ انا واثقة اننى سأعود الى دارى ، ولن اموت الا على فراشى فى يافا ، واهلى وصاحباتى حولى ، يبكون لموتى .

فقال لها الطبيب وهو ينتزع من فمه بسمة :

ــ وانا واثق انك ستعودين الى يافا .

ودار على عقبيه وهم بالانصراف ، ومس أذنيه صوتها الواهن وهى تقول :

ــ ليتك تزورنا فى يافا ، بعد أن نعود .

ــ ان شاء الله سأعود .

وسار وسارت الابنة خلفه ، حتى اذا ما بلغ الباب الخارجى قالت له الابنة :

ــ شكرا لك يا دكتور .

ــ عفوا .

ووقف برهة دون أن ينبس بكلمة ، ثم قال للابنة :

ـ تشجعى .

وانصرف وهو يوسع من خطوه ، وقد فطنت الابنة الى كل شىء .

ووقفت الابنة وقد تسمرت قدماها فى الأرض ، وبدأت مشاعر الخوف تزحف الى جوفها ، وراح ذهنها يعمل فى سرعة ، فقررت ان تبعث من يستدعى اختها واطلت برأسها من باب الشقة ، ونادت البواب الذى كانت غرفته على بعد خطوات منها ، وتوسلت اليه أن يذهب الى اختها يخبرها ان حالة امها قد ساءت وأن تأتى على عجل .

وانطلق البواب ، وعادت الى كرسيها واطرقت تفكر فيما ينتظرها ستذهب امها وتنقضى آلامها ، وتعود اختها الى زوجها ، وتبقى هى وحدها بلا انيس ولا جليس ، ستتجرع كأس الغربة والتشريد مرة اخرى .

وسالت دموعها على خدها ، واستشعرت رغبة فى النشيج ، لتنفس عن صدرها ضغط الأحزان الذى يكاد يكتم انفاسها ، ولكنها خشيت أن تتنبه امها الى بكائها ، فنهضت فى انفعال وذهبت بعيداً لتنخرط فى البكاء .

ومرت ساعات وهى فريسة افكارها السود ، المستقبل طريق طويل مظلم ، محفوف بالمتاعب والآلام والعرق والدموع والوحدة الموحشة المضنية القاتلة ، ولولا بصيص من الأمل فى العودة الى الوطن الحبيب لانفجرت جنباتها من القنوط .

وزفرت زفرة طويلة وغمغمت فى صوت مسموع :

ـ آه لو نعود !

ثم انفجرت باكية من الحنين .

وسمعت طرقا على الباب فجففت دموعها بكمها ، وذهبت تفتح لأختها وقد أحست بعض الراحة ، فلم تعد وحيدة ، وان كان ذلك الى حين . ونظرت القـادمة الى أختها ورأت احمرار عينيها فقالت فى هلع :

ـ ماذا جرى

ـ ثقل عليها المرض ، انها تفيق قليلا ثم تروح فى غيبوبة وفجأة تنادى خادمتها احسان وتطلب منها أن تذهب الى المعلم فى السينما لتقول له ان الست الكبيرة فى حاجة الى نقود أو تأخذ فى عتـاب صاحباتها فى يافا لأنهن لا يزرنها وصمتت قليلا ثم قالت :

ـ قال لى الطبيب قبل أن ينصرف « تشجعى » .

وأطرقت الأختان ، السمينة المترهلة التى مشى الشيب الى راسها خائفة من المستقبل الفارغ البغيض الذى يترقبها ، بينما كانت الأخرى تستشعر حزنا لفراق أمها أن يرتفع لمرتبة الهلع .

وسارت الأختان حتى بلغتا السرير ووقفتا تنظران الى الأم المجهدة الهزيلة المغمضة العينين ، وراحت الابنة المتزوجة تناديها همسا ، ثم اخذ صوتها يرتفع وما من مجيب ، فانبثقت فى مآقيها الدموع ، وتناولت يد أمها فى يدها وراحت تضغط عليها فى حنان ، كانت تنقل اليها باللمس كل ما عجزت عن أن تنقله اليها باللسان .

وجلست الأختان صامتتين ، عيونهما على الأم العزيزة ، وأفكارهما تشرد بعيدا ، وراح الوقت يمر وئيدا وئيدا ، وارتفع صوت الأم الواهن يبدد السكون المخيم على المكان ، قالت :

ـ احسان . افتحى غرفة الاستقبال . قولى لعائشة وفاطمة وزينب اننى قادمة .. احسان ! أين شالى ؟ لقد جئن أخيرا .. جئن كلهن معا لزيارتى .. شكرا لهن .. انهن وفيات ولكننى سريعة العتاب .. سأعتذر لهن لأننى أسأت الظن بهن .. احسان .. احسان ، وعادت الى صمتها ، ووقفت الأبنة المتزوجة عند راسها تناديها ، ووصل الى سمعها صوتها ، فقالت الأم :

ـ فردوس ؟ ! انت هنا ؟ . عودى يا حبيبتى الى سريرك ، لم يأت ابوك بعد ، لن يغيب طويلا ، سيعود .. سيعود من السينما .

وثقلت أجفانها ، وسكت لسانها ، وراحت تلتقط انفاسها فى جهد ، وتبادلت الأختان نظرات كلها أسى ، وتحركت فى صدريهما مشاعر بانت آثارها فى الدموع المترقرقة فى العيون .

ومر بعض الوقت ثم ارتفع صوت الأم يسرى فى المكان وقد نمت ذبذباته عن فرحة :

ـ احسان : اسرعى افتحى الباب ، لقد جاء سيدك .. بل سيدنا جميعا ، فردوس تعالى .. لقد حضر أبوك .. احبابى كلهم هنا .. هنا معى .. اننى اليوم سعيدة ..

وادبر النهار ، وراح الظلام يزحف من كل مكان ، وظلت انهار وفردوس فى مكانهما لا تتحركان ، كانتا مشغولتين بالأفكار المتلاطمة فى راسيهما ، وبوخز كلمات الأم التى نكأت جرح نفسيهما ، وتأوهت انهار دون وعى من وطأة المشاعر القاسية الجاثمة على روحها ، وانتبهت بعد أن ندت منها آهة توجع حارة منطلقة من جوف يتلظى بالنار ، فالفت المكان غارقا فى الظلام ، فقامت وادارت الزر

الكهربى فاذا بالنور ينسكب من المصباح ويفيض حتى يغمر الغرفة كلها ، وينساب ليجالد جحـــافل العتمة المسيطرة على الردهة وما بعدها .

والتفتت فردوس الى اختها وقالت :

ـ الا تأكل شيئا ؟

فقالت أنهار وهى تهز راسها اسفا :

ـ مضى يومان ولم يدخل جوفها شيء .

ـ هل أخبرت الدكتور ؟

ـ نعم . وطلبت منه أن يغذيها بالحقن ولكن أبى .

وأشاحت انهار بوجهها ، لم تكن قادرة على أن تلتقى عيناها بعينى أختها ، كانت على ثقة من أن الطبيب قد أبى ان يوصى بالتغذية عن طريق الحقن ، لأنه يعلم أنها لا تملك ثمن الدواء ، لقد جاء ثلاث مرات دون أن تدفع له أجر زيارته .

وعاد الصمت ليسيطر على المكان ، واخذت تقلصات وجه الأم تنبسط ، وراح الدم ينساب فى وجنتيها الذابلتين فيترقرق محياها صحة ، وانزاحت الأثقال الرازحة على جفونها ففتحت عينيها ، وانتشر بشر عجيب فى مقلتيها وارتسمت بسمة على شفتيها ، ودبت فى أوصالها قوة مفاجئة كأنما مستها عصا سحرية ، فهمت قاعدة فى فراشها ، وخفت اليها ابنتاها يسندانها بأذرعهما ، فاذا بها تقول فى بشر وهى تتلفت :

ـ هاقد عدنا .. عدنا الى دارنا .. فردوس .. أنهار .. هذه غرفتكما

كما هى .. سريرك يا أنهار لازال منكوشا كما تركناه ، وثيابك يافردوس لا زالت معلقة ، يا فرحتاه ! اننا هنا .. فى بيتنا .. فى يافا .

احسان .. تعالى .. افتحى هذا الشباك .. ما أرق نسيم البحر الذى يهب علينا .

وضغطت على يدى ابنتيها اللتين كانتا فى يديها وقالت :

ـ اننى سعيدة .. لا أكاد أصدق اننا عدنا .. احسان أزيحى هذه الستارة حتى أرى مئذنة العجمى .. ها هى ذى المئذنة تأتلق بالنور .. اننى ارى يافا .. يافا كلها .. أسمع موسيقى .. موسيقى عذبة .. موســـيقى آتيـة من كل مكان .. أنظرى يا أنهـار وأصيخى السمع .. أهى موسيقى منبعثة من السينما .. لا .. لا .. انها أعذب موسيقى سمعتها .. انها موسيقى ملائكية آتية من السماء .. حتى السماء تحتفى بعودتنا .

أحسان ! افتحى النافذة القبلية .. اريد أن أستنشق عبير ازهار البرتقال .. آه . اننى اشم أرق عبير ملئت به رئتاى . وعلاها البهر ، وراحت تستنشق الهواء فى جهد ، وخف ضغط يديها على يدى ابنتيها ، وثقلت اجفانها ، وراحت تقول فى وهن :

ـ لماذا اغلقتم النوافذ ؟ ! لماذا أسدلتم الأستار ؟ ! لماذا حجبتم عنى نور المئذنة ، ونسيم البحر وعبير أزهار البرتقال ؟ ! لا زلت أسمع الموسيقى ، انها ترفه .. تزداد رقة وعذوبة ، انها أرق من نسيم البحر ، وأعذب من عبير أزهار البرتقال

وثقل جسمها ، وارتخت ذراعاها ، فراحت ابنتاها تتعاونان

على تمديدها فى سريرها فى حرص ، واستقرت على الفراش ، وهى تكاد تنوء من الاعياء .

وضاق صدرها بروحها ، فراحت تردد آخر أنفاسها :

ـ احسان .. أنهار .. فردوس .. البحر .. العجمى .. يافا .. ازهار .. البرتقال .

وخفت صوتها ، وراحت تجود بآخر أنفاسها ، فقالت لها انهار فى لهفة وفى عينيها دموع ، وصوتها مخنوق :

ـ أمى .. تشهدى .

ومالت فردوس فوقها وراحت تقول :

ـ أمى .. لقد عدت .. لقد عدت .. انتهت غربتك .. انتهت ايام تشريدك ..

وسقط راس الأم على صدرها ، ولفظت نفسها الأخير ، وارتمت انهار عليها وراحت تمرغ وجهها فى صدرها وهى تبكى وتنتحب ، اما فردوس فقد قالت والدموع تجرى على خديها :

ـ والله لأحملن رفاتك معى يوم نعود .

فاجرة

- ١ -

سارت فردوس فى الغرفة الواسعة ، وهى تحمل بطانية رمادية من الصوف ، واتجهت الى الأريكة التى كانت تعدها لتكون سريرا للوافد الجديد ، وطوت البطانية ووضعتها فى عناية فوق طرف الأريكة الخالى ، فقد كان فى الطرف الآخر وسادة صغيرة ، واسدلت على الجميع مفرشا ابيض ، راحت تمرر يدها عليه لتبسط ثنياته .

واتجهت الى الكنسول وراحت تجره ، واذا بزوجها سويلم يدخل ، ويقول لها :

ـ ماذا تفعلين ؟

ـ اقرب الكنسول من الفراش ، ليضع كتبه وأدواته فى أدراجه ، ويستعمله مكتبا . ليس عندنا مكتب .

ـ ولماذا لم تناديني لأساعدك ؟

ـ لم اشأ ان اتعبك .

فقال وهو يرمقها فى ود :

ـ تعبك راحة .

وشمر اكمام جلبابه واسرع اليها يعاونها .

كانت فردوس فى الخامسة والعشرين ، قمحية اللون ، واسعة العينين ،يلمع سوادهما لمانا اخاذا ،وبياضهما ناصعا ،وانفها متناسبة وشفتاها رقيقتين منطبقتين على فم اشبه بجرح دقيق تتجمع دماؤه لتتفجر ، وغار طابع الحسن فى ذقنها ، وشعرها فى لون الفحم يبدو فيه الفرق الأبيض كشريط من العاج مد فى وسط مخمل أسود ، وغطى مؤخر راسها منديل ابيض ، تدلت من حواشيه احجبة صفيرة شغلت من خيوط فى لون العقيق ، ونبعت من تحت المنديل ضفيرة غزيرة ، طالت حتى لمس طرفها اعلى جزء فى عجزها .

وكانت ترتدى ثوبا فضفاضا ناصع البياض ، كان أقرب الى جلباب الرجال ، ولكنه عجز عن أن يكتم سر الجسد الذى يحويه ، فالثديان المتلئان يهتزان فى رعونة كلما اقبلت أو ادبرت ، والأرداف تتكور كلما مالت تلتقط شيئا ، أو انثنت على السرير او الأرائك او المقاعد تعيد تنسيقها ، اما الخصر النحيل ، والبطن التى لم تعرف الحمل . فقد كان يفضحها ضمها لحشية كبيرة بين ذراعيها ورفعها على صدرها ، فالثوب يشد حول الجسد شدا ، ويكشف سحره .

وكان سويلم يخطو نحو الستين ، طويل القامة ، محدودب الظهر قليلا ، جاف الوجه ، مضعضع العينين ، تبعثرت فى ذقنه بعض شعرات بيض . يرتدى جلبابا من الصوف وان لم يكن الشتاء قد اقبل ، ويضع على راسه طاقية من الصوف .

ووضعا الكنسول بالقرب من الأريكة ، واخذت فردوس تنظف

مرآته بأوراق صحيفة ، ووقف سويلم يتطلع اليها بعينين راضيتين ، وقال :

ـ اهو ابن خالتك ؟

فقالت فردوس وهى مستمرة فى عملها ، وصدرها يترجرج :

ـ امه ابنة خالتى .

وصمت قليلا ، ثم قال :

ـ كم سنه ؟

ـ والله لا ادرى . آخر مرة رايته فيها كان طفلا صغيرا .

فغمغم :

ـ طفل صغير ؟ !

ثم قال فى صوت فيه دهش :

ـ وماذا نفعل لو بكى ليلا وطلب العودة الى امه ؟

فضحكت فردوس ضحكة ناعمة وقالت :

ـ تحمله على كتفك وتذهب به الى امه .

فقال فى فزع :

ـ أخرج فى برد الليل ؟ والله لو بكى ..

ولم تدعه يتم حديثه ، بل قالت وهى تضحك :

ـ اطمئن لن يبكى ، كانت آخر مرة رايته فيها من تسع سنوات بعد زواجنا بسنة ، كان لم يذهب الى كتاب القرية بعد ، وقالت لى امه : لما يأخذ الابتدائية سأبعث به اليك فى البندر ، ليدخل مدرسة الصنائع .

كنت احسبها تمزح ، فقلت لها مجاملة : سأضعه فى عينى ،

ولم تنس ما دار بيننا ، ذكرته فى رسالتها كلمة كلمة ، كأنما نقش فى راسها .

ورفعت فردوس كرسيا من الخيزران فى يدها ووضعته تحت حلقة تدلت من السقف ، ثم خرجت من الغرفة ، وما لبثت أن عادت تحمل مصباحا كبيرا ، يأتلق معدنه ، وتتشمخ زجاجته ، ودفعت بالمصباح الى زوجها ، ووقفت على الكرسى ، ومدت يدها وقالت :

ــ هات .

فقال لها وهو يمد يده بالمصباح :

ــ خذى .. يأخذ عدوك .

وشبت على اطراف اصابعها وهى تضع المصباح فى الحلقة ، فشد جسمها وانحسر الثوب قليلا عن ساقها المتلئة ، فمد سويلم يده وراح يمررها على ساقها فى حنان ، فرنت اليه فى دلال ، وقالت فى خبث :

ــ اقع .

وضحكت ضحكة طويلة منغمة ، كلها نداء ، فابتسم سويلم فى مرارة ، وقفزت فردوس فى خفة ، وارتمت فى صدره ، فوضع شفتيه على خدها وطبع قبلة باردة ، واحست قشعريرتها فى روحها .

وارتفع رنين جرس « كرته » ، فأسرعت فردوس الى الشباك ونظرت ثم التفتت الى زوجها وقالت :

ــ عرفه حضر .

وعادت الى زوجها مهرولة ، واخذته من يده ، وانطلقا لاستقبال الوافد الجديد .

وقفا عند راس السلم يترقبان ، كان سويلم يحس بعض الضيق فقد ألف حياته وما كان يحب أن يعتورها التغيير ، أما فردوس فقد كانت تستشعر رغبة فى استكناه طلعة الطفل الذى لم تره منذ تسع سنين .

وراح عرفه يصعد فى الدرج وهو مطرق الرأس ، يعلق فى ذراعه صرة بها ثيابه ، ويحمل فى يده الأخرى حقيبة عتيقة من الجلد الأصفر اسودت اطرافها من العرق ، واحس أن هناك من يرقبه عند راس السلم ، فنظر دون أن يرفع راسه ، فألفى سويلم وفردوس ينتظرانه فخفق قلبه فى شدة واضطرب ، واخذ يصعد متمهلا ، لعل القلق الذى نزل به يهدأ ، ولعل انفاسه تنتظم .

ودنا منهما ، فاذا بهما يتطلعان اليه وقد فغرا افواههما ، ولاح الدهش فى عيونهما ، كان فتى مكتمل النمو ، عريض الكتفين ، قوى الساعد . وانشرح صدر فردوس ورفت على شفتيها بسمة عريضة بينما زاد انقباض سويلم ، ولم تفلح الفرجة التى لاحت بين شفتيه فى أن تخفى عبوسه .

ووصل اليهما وعيناه حائرة بينهما وفتح فمه ليلقى عليهما تحية ، ولكن حبس صوته فارتبك ، فأسرعت فردوس تقول وهى تمد له يدها :

ــ اهلا وسهلا .. شرفتنا .

والتفتت الى زوجها وقالت ، ويدها لا تزال قابضة على يد الفتى :

ــ عمك سويلم .

وارخت يدها القابضة على يده ، فمد يده ومال ليقبل يد الشيخ الممدودة لمصافحته ! ولكن الشيخ سحبها بعيدا عن الفم المزموم .

وساروا جميعا ليدخلوا الشقة ، وقد تباينت مشاعرهم ، فردوس تختلس النظر الى الفتى فى سعادة ، وسويلم يرمقه فى برم ، وهو سائر كالمذهول يكاد ينكر نفسه .

وبلغوا الغرفة التى اعدت له ، وقالت فردوس وهى تفسح له الطريق :

ــ تفضل .

وتقدم وحده ، وجعل يتلفت فى ارتباك ، ووقعت عيناه على الكنسول فاتجه اليه ليضع الصرة والحقيبة فوقه ، والتقت عيون الزوجين فهمست فردوس :

ــ والله لو بكى فى الليل فلن يحمله على كتفه أحد غيرك .

ورنت فى المكان ضحكتها المنغمة الذاخرة بالنداء .

- ٢ -

سرى فى سكون الليل صياح ديك ، واذا بصيحات الديوك تتجاوب من كل مكان ،وتسللت خيوط فى لون الرصاص من خصاص الشباك تجاهد لتزحزح الظلام الثقيل الجاثم على انفاس حجرة نوم الزوجين ، وهتك الصمت وقع اقدام فى الطريق ، وأصوات عجلات عربة مقبلة من بعيد .

وراحت الخيوط الرصاصية تتحول الى خيوط من الفضة ، فبدت اعمدة السرير النحاسية الصفراء الشامخة كأعمـــدة من الأبريز ، وتقلب سويلم فى الفراش وتمطى ، ثم ازاح الغطاء عنه ونهض ليذهب الى دورة المياه يتوضأ .

وألقى نظرة على فردوس النائمـة الى جواره ، فألفى ســـاقها قد تعرت ، فمد يده وسحب الغطاء فوقها وسار ، وما أن غادر الغرفة حتى دفعت فردوس الغطاء عنها بقدمها ، ورفعت ساقيها الى أعلى فانحسرت ثيابها عن افخاذها ، ودارت فى السرير نصف دورة ، وبحركة رشيقة كانت منتصبة على قدميها وانطلقت الى غرفة عرفة ، فتحت الباب ، فألفت عرفة جالسا على الأريكة التى اعدت لنومه ، فقالت له :

ـ يسعد صباحك .

ـ يسعد صباحك .

وتناولت من خلف الباب قصبة من الغاب مجوفة ، وتقدمت حتى وقفت تحت المصباح ، ووضعت طرف القصبة فى الفتحة المجوفة بقعر المصباح ونفخت فى القصبة ، فانطفأ النور الخافت الذى كان يتراقص كانما يترنح قبل أن يلفظ انفاسه .

وذهبت الى الكرسى الخيزران ، وفطن عرفه الى ما ستفعله فقد رآها مرارا تقوم به ، فكان اسرع منها الى الكرسى ، وحمله بيده ، ووضعه تحت المصباح ، ثم وقف فوقه ، ليتناول المصباح من الحلقة المدلاة من السقف ودنت فردوس منه ، ورفعت راسها ترمقه ، وفى عينيها غبطة ، وفى صدرها نشوة ، باتت تستشعر مشاعر جديدة مذ جاء الى البيت ، تدسست فى روحها يقظة بعد طول هجوع ، كادت الشيخوخة المبكرة تنجح فى اسدال أستره كثيفة على قلبها الشاب ، فاذا بوفوده يهتك الأسجاف ويجعل القلب يرفرف فى انطلاق . وكادت كنوز قلبها تغور ، واذا به يفجر المكنون ، فتتفتح مهجتها تفتح الزهر للندى ، وترق احاسيسها رقة انفاس السحر ، ويترقرق فى جوفها حنان دفاق ، وتدب فى أوصالها حياة حلوة عذبة ، لها طعم حبيب مشتهى ، لم تذقه من قبل ، مذ عرفت كيف تتذوق الحياة .

حرمت الأمومة سنوات ، فكبتت احاسيسها الرقيقة ، فلما جاء وجدت مشاعرها المذخورة المكنونة منفسا ، آه لو كان أصغر قليلا مما هو لأجلسته على فخذها ، وضمته الى صدرها ، وجعلت تعبث بأصابعها فى شعره ، وطفقت تلثمه دون حرج هنا وهناك .

وهبط عرفه والمصباح فى يده ، وتحرك لينطلق به الى المطبخ

يعمره بالجاز ، فاعترضت طريقه ، ومدت يدها تتناول منه المصباح وعيناها على شفتيه ، تراودها فكرة ان تتقدم خطوة وتقبله ، ولكنها وادت وسوسة النفس ، واخذت عيناها تطرفان فى اضطراب على الرغم من البسمة التى رفت على شفتيها .

ودارت على عقبيها وانصرفت ، وقلبها يخفق فى حنان ، وقد انتشرت فى جوفها رهبة لذيذة لها نشوة استكانت لها ، واخذت تغذيها بالأفكار . راحت تجتر ذكريات يوم الجمعة .. عرفة فى غرفته لم يغادرها ولكنها تلمحه فى غدوها ورواحها .. سويلم فى البيت ممددا على كنبة فى استرخاء .. موعد صلاة الجمعة يقترب .. الزوج يطلب منها ان تعد الحمام .. موقد الجاز يطن .. البخار يتصاعد من الصفيحة الموضوعة فوق الموقد .. الزوج يدخل الحمام وعلى كتفه بشكير ابيض .. ترتفع طرقات الزوج على باب الحمام .. تفتح الباب فى حرص لتدخل مسرعة قبل ان يدخل الهواء البارد .. تلتقى عيناها بعينى عرفه وهى تنسل الى الحمام يغض عرفه من بصره حياء .. يشرق وجهها بالابتسام .

انها تدلك ظهر الشيخ المقرور بالليفة والصابون فى شدة ، انتقلت الحياة المتدفقة فى جوفها الى ساعدها ، فتأوه الرجل وصاح فيها ان تترفق به ، ولكنها ظلت تدلكه فى حرارة فأمرها ان تكف قبل ان تدق عظامه . وضحكت ضحكتها المنغمة الداخرة بالنداء ، وخرجت واثر الصابون فى يديها فأخذت تجففهما وهى ترنو الى عرفه منتشية .

وذهب الزوج لصلاة الجمعة ، وذهبت الى عرفه تدعوه

للاستحمام ، واغلق باب الحمام خلفه ، وانطلقت لبعض شأنها ، ولكن سرعان ما وجدت نفسها منجذبة الى الحمام ، وطفقت تغدو وتروح امامه ، وانفاسها تتلاحق . نبتت فى اغوارها مشاعر كثيرة متباينة لا تدرى كنهها ، كانت مزيجا من الأمومة والرغبة والرهبة والاشتهاء ، ومس اذنيها صوت ارتطام الكوز بالصفيحة ، فجفلت مفزوعة ، ولكن ما لبثت ان عادت صاعدة هابطة امام باب الحمام .

آه لو كان أصغر قليلا لفتحت الباب ودخلت تغسل له راسه وصدره وذراعيه وافخاذه وساقيه وقدميه ، وتصب عليه الماء صبا . انها لا تذكر انها قامت بغسل جسم غلام ، وانها تحس الساعة انها حرمت من لذة .

وهمس فى صدرها هامس يسألها عما تفعله اذا دق البـاب وطلب منها أن تدلك له ظهره ، ولم تجب عن السؤال ولكن سرت فى جوفها مشاعر لذيذة مغلفة بغشاء رقيق من الخشية .

وتحركت أكرة باب الحمام . فهرولت مبتعدة كأنما خشيت أن يراها قريبة من الباب فيفطن الى ما دار فى خلدها ، وخـرج يرتدى جلبابا مخططا مفتوح الصدر ، فقالت له :

ــ نعيما .

ــ انعم الله عليك .

واعترضت طريقه ، ومدت يدها تزرر له الأزرار المفتوحة ، وهى تقول :

ــ زرر صدرك ، الدنيا برد .. وانت خارج من الحمام .

ولفحت أنفاسه الحارة وجهها ، فتلكأت فى عملها تنعم بالخدر

اللذيذ الذى سرى فى كيانها ، ولمحت قطرة ماء على جبينه ، مسحتها بكفها فى حنان .

واستأنف سيره الى غرفته ، وذهبت الى الحمام تغسل له ثيابه . كان الغسيل بغيضا الى نفسها ، ولكنها لم تستشعر ذلك الضيق الذى كانت كلما جلست الى طشت الغسيل ، بل كانت تغنى فى نشوة .

وافاقت من الأحلام اللذيذة الدائرة فى راسها على وقع اقدام خلفها ، فالتفتت فوجدت عرفه مقبلا ، فرمقته فى استفسار ، فقال لها :

ـ اساعدك ؟

ـ انى اعد الأفطار .

فذهب ووضع الطبلية ، وعاد الى المطبخ يحمل ما اعدته .

وتحلقوا الطبلية ، فردوس وسويلم قد جلسا جنبا الى جنب ، وجلس عرفه أمامهما ، واخذوا يتناولون طعامهم وهم يتحدثون احاديث شتى ، لا ينتظمها سلك ولا يربط بينها رابط .

وتحركت فردوس لتريح رجلها ، فانحسر ثوبها عن فخذها ، ووقعت عينا عرفه على الفخذ العارية فأدام النظر ، ولمح الشيخ اتجاه العيون الخائنة ، فلكز فردوس بمرفقه وقال بصوت فيه رنة غضب :

ـ غطى رجلك .

وارتبك عرفه ، واسبل عينيه ، ودق قلبه فى شدة ، وتدفقت

دماء الخجل في وجهه فاحمر ، ومد يدا متخاذلة الى الطمام واعادها الى فمه ، ولكنه لم يسغ ما يأكله ، فجعل يلوكه في فتور .

واحست فردوس ما يكابده الفتى ، فأشفقت عليه ، وضاقت بما فعل زوجها ، وهمت بأن تقول شيئا ترفه به عن عرفه ، ولكنها خشيت أن تفتح بابا قد يؤدى الى جرح شعوره ، فلاذت بالصمت .

وبعد عرفه عن الطبلية ، فقالت له فردوس :

ـ كل .

ـ الحمد لله .

ونهض ليحمل كتبه وينسل الى مدرسته .

- ٣ -

دق جرس المدرسة ايذانا بالانصراف ، فخف التلاميذ الى ملعب الكرة من كل فج ، وأصواتهم عالية وضحكاتهم مجلجلة ، فقد ذهبوا ليشاهدوا المباراة التى ستقام بين فريق مدرستهم وفريق المدرسة الثانوية .

وانسل عرفه من رفاقه وانساب مسرعا صوب الباب ، وقابله احد زملائه وهو يحمل بوق فونوغراف يهتف فيه مشجعا مدرسته ومحييا اللاعبين الأصدقاء ، وخلفه شلة من التلاميذ يتصايحون ، فرفت على شفتى عرفه بسمة ، وانطلق فى طريقه دون أن يلوى منقه ، فقد أصبح يتعجل ساعات الدراسة ليعود الى البيت ، بات يجد سعادة غامرة فى الحديث الى فردوس ، والاصغاء اليها ومشاركتها فيما تفعل ، والتمتع بدعاباتها .

ووضع المثلث الكبير وبعض أدواته تحت ابطه ، وراح يضرب فى الطريق المنساب بين الحقول ، وقد خلف وراءه أشجار الجازولين العالية التى تحد مدرسته ، وامتدت على جانبيه خضرة تباينت الوانها واشكالها وثمارها ، الخبيزة كأنها دوائر من مخمل أخضر ، واوراق الترمس كأنها من رسم فنان سريالى ، لا تماثل فيها ولا تجانس ، والطماطم كأنها جواهر انسدلت عليها أوشحة خضراء تخفيها عن العيون .

وبلغ طريق المدينة المرصوف ، فضرب الأرض بقدمه فى قوة

مرات متتابعات ليزيل الغبار العالق بحذائه ، ثم استأنف سيره ووسع من خطوه ، وجعل يتماشى فى رشاقة العربات « والكارتات » والدراجات التى تحمل على جانبيها اقساط اللبن ، القادمة من اليمين ومن اليسار على السواء .

ودلف الى حارة جانبية ، ليتجنب المرور على مغلق خشب الشيخ سويلم ، فقد مر عليه مرة وحياه ، فأبقاه معه حتى عادا الى البيت معا بعد صلاة المغرب . ومن ذلك اليوم تحاشى أن يمر عليه عند عودته ، حتى لا يحرم من ألذ ساعات النهار .

وبلغ الدار ، وصعد فى الدرج وثبا ، ونقر الباب بأصبعه نقرات خفيفة ، فأسرعت فردوس وفتحته ، ولما وقعت عيناها عليه ، قالت :

ـ اهلا بالباشمهندس .

ومدت يدها تحمل المثلث الكبير والأدوات الموضوعة تحت ابطه ، وسارا جنبا الى جنب الى غرفته ، يلمس كتفها كتفه مرة ، ويحتك ذراعه بذراعها مرات ، وتأتلق العيون ببريق أخاذ .

ووضعت المثلث والأدوات على الكنسول ، ولمحت لوحة بيضاء عليها خطوط رسمت بحبر أسود ، فتفرست فى الرسم برهة ، دون أن تفهم شيئا ، فقالت وهى تتطلع الى صورة عرفه المنعكسة فى المرآة :

ما هذا ؟

فقال وهو يدنو منها :

ـ رسم لعمل أبريق .

ووقف خلفها ، واخذ يتطلع الى الرسم من فوق كتفها ، وهى تعاود النظر لعلها ترى أبريقا ولكنها لم تر الا دائرة وخطوطا ، فرفعت راسها وقالت وهى تنظر الى المرآة :

ـ اين الأبريق ؟

فمد ذراعه من خلفها ، وجعل يمرر اصبعه على الخطوط وهو يقول فى اعتداد الأستاذ :

ـ هذه دائرة قاع الأبريق ، واذا قص هذا الخط وهذا الخط وقرطسنا الورقة ولصقنا هذا الطـرف بذلك الطرف تكون جسم الأبريق .

ـ وما هذه الخطوط ؟

ـ زخرفة فى الأبريق .

فقالت وهى ترنو اليه بطرف عينها :

ـ « ابريق الحنبلى كل ما يفرغ يمتلى » .

وضحكت ضحكتها المنغمة الذاخرة بالنداء ، ورنت اليه رنوة طويلة ، وابتسمت بسمة خبيثة ، ومالت قليلا فى دلال حتى مس ظهرها صدره فأحس خدرا لذيذا ، والدماء الحارة تتدفق فى عروقه وتصهد خديه .

ودارت فى خفة دورة كاملة ، فأصبح صدرها أمام صدره ، وقالت وهى تعبث فى أزرار قميصه :

ـ هل بعثت بك امك الى هنا لتصبح سمكريا ؟

وتعلقت عيناها بشفتيه ، لم تكن تنتظر جوابا ، بل كانت نفسها

تغريها أن تلف ذراعيها حوله ، وأن تضمه اليها ، وأن تضع شفتيها على شفتيه ، وقال فى صوت مضطرب ، تخنقه انفعالاته :

ــ هذه تمرينات . نبدأ بالبسيط ثم نتدرج ، اننا ندرس هندسة السيارات فى السنة الأخيرة .

وظلت عواطفها الثائرة تعربد فى اغوارها ، فمدت يدها وربتته على خده ، ثم انصرفت مسرعة لتفر بنفسها من نفسها .

وراح عرفه يخلع ثياب المدرسة ، وارتدى جلبابه المخطط ، وجلس على حافة الأريكة ، ومد يده وتناول كتابا وفتحه ، وحاول أن يقرأ فيه ، ولكنه كان شارد اللب ، يحس رغبة فى أن يذهب الى فردوس يعاونها فيما تفعله ، ويسعد بقربها .

ونحى الكتاب جانبا ، وقام ليذهب الى المطبخ ، فقد وصل الى سمعه طنين موقد الجاز ، وفطن الى انها بدات فى الطبخ ، ووقف بجسمه يسد باب المطبخ ونظر ، فالفاها تنقى الأرز فى غطاء الحلة ، فقال لها :

ــ وانا ماذا افعل ؟

فقالت دون أن ترفع راسها :

ــ قشر البصل وخرطه .

وتحرك ، وقبل ان يصل الى البصل ، قالت له :

ــ قلب الحلة .

فاتجه الى الحلة الموضوعة على النار ، وراح يقلب الخبيزة فى الماء المغلى ، واستمر فى التقليب حتى أمرته ان يكف .

وراح يقشر البصل وهو يبعد وجهه عنه ، ولكن رائحته النفاذة

تسللت الى خياشيمه وحركت دموعه ، ولمحته وهى تتجه الى الحلة الموضوعة على النار فابتسمت .

وقلبت الحلة فى مصفاة تحتها وعاء ، وأخذت تدلك الخبيزة بيدها لتصفيها ، وهى تنظر اليه ، وبدأ فى تخريط البصل فسالت الدموع غـزيرة من عينيه ، فضحكت ضحكتها الممدودة الناعمة وقالت :

ــ دع البصل وتعال صف الخبيزة .

فقال فى مكابرة :

ــ سأنتهى من البصل وأصفى الخبيزة .

ومدت يدها النظيفة تجفف له دموعه بطرف جلبابه .

وانتهى من تخريط البصل ، فمد يده يدلك الخبيزة معها فى المصفاة ، وارتطمت يده بيدها أكثر من مـرة ، والتصق رأسه برأسها ، واختلطت الأنفاس ، وساد صمت قلق ، كان كل منهما ينعم بمشاعره ، ويقاوم الثورة المتأججة فى نفسه ، ويخشى أن يرفع راسه ، حتى لا تفضح العيون ما تطويه الجوانح

ومر الوقت دون ان ينبس أحدهما بكلمة ، هى تتظاهر بالانشغال بالحلة الموضوعة على النار ، وهو الى جوارها يتطلع الى ما تفعل كأنما يريد أن يعيى درسا ، وأن كانت عيناه تتسللان من جيب صدرها ، ليكشفا سره .

وقال عرفه وقد اشرق وجهه :

عرفت كيف تطبخ الخبيزة .

فقالت فردوس وهى تدير راسها وتنظر فى عينيه .

ـ ستصبح باشطباخ قبل أن تصبح باشمهندس .

وضحكت ولكزته بمرفقها فى صدره فى خفة ، فابتسم وتقدم خطوة وفى جوفه اغراء بأن يضع يده على كتفها .

وفتحت محبس موقد الجاز ، فخبت النار حتى خمدت ، ولكن النار التى كانت ترعى فى احشائهما ظلت تتلظى ، وتحركت ووضعت جردلا تحت الصنبور وراحت تملؤه ماء ، فراح عرفه يشمر عن ساعديه ، فقالت له :

ـ ماذا ستفعل ؟

ـ سأمسح الشقة .

ـ لا . اذهب وذاكر .

ـ والله لن يمسحها اليوم أحد غيرى .

ومد يده وحمل الجردل ، وقبل أن يتحرك ، قالت له :

ـ انتظر . ارفع جلبابك حتى لا يبتل .

وقبل ان يضع الجردل على الأرض مالت وتناولت طرف جلبابه ورفعته وراحت تشده فى قوة حول وسطه وتثبت بعضه فى بعض ، فصار الجلباب من تحت وسطه طبقتين ، وتعرت ساقاه ، ولاح فيهما زغب خفيف من الشعر .

وانثنى وبين يديه خيشة المسح ، واخذ يمررها على البلاط فى سرعة وهو يتقهقر ، وكاد يرتطم بفردوس فضربته بكفها على كفله ، وقالت :

ـ حاذر .

ونظر اليها من بين ساقيه المفتوحتين وابتسم ، فضحكت

فردوس ضحكة طليقة مرحة ، جلجلت فى المكان ، حتى غطت على صوت المفتاح الذى دار فى باب الشقة الخارجى .

وصكت ضحكتها مسامع الشيخ سويلم ، فتقدم على أطراف اصابعه ونظر ، فالفى عرفه منهمكا فى المسح ، وزوجته قد علقت طرف ثوبها بأصبعها حتى لا يبتل ، وراحت تقول :

ـ عرفه ! كفى ، وسطك انحل .

وتنحنح الشيخ ، فدارت فردوس بنصفها الأعلى ونظرت ، وظل عرفه قابضا على الخيشة ، وان راح ينظر من طرف عينه ، وقالت فردوس :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم ، من اين دخلت ؟

فقال الشيخ سويلم وهو سائر فى طريقه الى غرفته :

ـ من الباب .

ورمى عرفه بنظرة نمت عن ضيقه ، وزاد فى مرارته لما راى ساعدى الفتى المفتولين ، كان ينفس عليه شبابه ، ويغار من فتوته فى أغواره ، وان لم يكن يعى حقيقة مشاعره . ودخل غرفته وفردوس خلفه ، واحس رغبة فى تقريعها ولكنه كبح عواطفه ، خشى أن يستسلم لثورته فيبالغ فى ايلامها ، وهو لا يحب ان يمزق قلبها ، فهو يهواها ويهيم بها حبا على الرغم مما يبدو منها من رعـــونة احيانا .

ووطن النفس على الصمت حتى تهدأ نفسه ، ويخبو شره ويختلى بها فى الليل ، فيفضى اليها بما يريد ان يقوله وهو يداعبها .

ومدت فردوس يدها تعاونه على خلع ثيابه ، وقالت :

ـ أحضر العشاء ؟ الخبيزة ساخنة .

ـ هيا .

وخرجت ، وبقى وحده يفكر ، وراح يمرر يده على جبهته ليمسح المشاهد البغيضة المتنافرة التى نبتت واختلطت فى راسه ، عرفه وهو يختلس النظر الى فخذ زوجته العارية ، وبائعات الهوى جالسات أمام حوانيتهن ، فقد كان لفظ « الخبيزة » الذى كان يطلق على حيهن كفيلا باقامة الحى فى ذهنه نابضا بالحياة وان كان قد اندثر من سنين بعيدة .

وتململ ، وراح يغدو ويروح فى قلق ، وارتفع صوت فردوس يدعوه للعشاء :

ـ تفضل .

وانطلق مهرولاً ليفر من أفكاره ، وجلس الى الطبلية . وهو يمد يده الى طبق الخبيزة ، ولكنه توقف قليلا وتفرس فى وجه عرفه ، ثم التفت الى زوجه ، فلما تيقن من أن فخذها ليست عارية بدا ياكل .

وانتهوا من طعامهم ، وانسل عرفه الى غرفته ليستذكر دروسه ، وأغلق الزوجان باب غرفتهما عليهما .

تمددا فى السرير ، وأحكم سويلم الغطاء عليه ، وشرد ببصره قليلا ثم قال :

ـ انى أفكر فى عرفه ، لماذا يتجشم أهله ارساله الى المدرسة ؟ لماذا يحرمون أنفسهم من معاونته ؟

فقالت فردوس فى حماسة :

ـ ليضمنوا له مستقبلا افضل . بعض سنوات من الصبر بعدها تزيد فائدته .

ـ انهم سيخسرونه الى الأبد . لو ابقوه معهم وزوجوه لضمنوا نفعه .

فقالت فردوس فى انكار :

ـ عرفه يتزوج ؟ ! انه لا يزال طفلا .

فقال سويلم وقد لوى شفته السفلى :

ـ تزوجت اول ما تزوجت فى مثل سنه .

فقالت فردوس فى سخرية :

ـ ولماذا كانت العجلة ؟

ولم يفطن الى سخريتها ، وشرد يجتر ذكريات شبابه فى نشوة ، (وقد آثر ان يطوى حقده على عرفه بين جوانحه) بينما رن صوت فردوس فى اعماقها وان لم تتحرك شفتاها يقول :

ـ يا وكسه ، اخذتك لحما وتركتك لى عظمة ، مصتك مصا وجئتنى جافا ، آه لو تزوجتنى وانت فى الخامسة عشرة !

وتدفقت دماؤها الحارة فى عروقها ، واشتعلت النار فى جسدها فوضعت شفتيها المتلهبتين على شفتيه ، ولكنهما كانتا كجثة هامدة .

- ٤ -

عاد فى العصر مسرعا كعادته ليعاون فردوس ويعيش معها أسعد لحظات يومه ، وراح ينقر الباب باصبعه نقرا خفيفا ، ولم تخف فردوس اليه كعادتها ، بل ظل الباب موصدا مدة ، ومس أذنيه صوت هرولتها فى قدومها فتأهبت حواسه لاستقبالها ، خفقان لذيذ فى القلب ، نشوة مدغدغة فى الصدر ، بريق خاطف فى العين ، لسان رطب يمر على الشفتين .

وفتح الباب ، ولم تنبس فردوس بكلمة ، كان جبينها يلمع ، وحاجباها مزججان ، وخدها متوردا من أثر النتف ، وكانت يدها خلف ظهرها تخفى شيئا ، ففطن الى أن الحلوى لا تزال بين أصابعها ، فرفت على شفتيه بسمة وزاد تألق عينيه ، ورنت اليه فردوس رنوة كلها خبث ، ثم هرولت الى غرفتها ، وواربت بابها .

ودخل غرفته ، ووضع كتبه وخلع ثيابه ، وجلس على الأريكة ولكنه لم يستطع أن يستقر فنهض وسار حتى دنا من غرفتها . ومد بصره محاولا أن يرى ما يجرى هناك من فرجة الباب ، وهو يستشعر قلقا مشتهى ، ورغبة جامحة ، ومشاعر رقراقة تعربد بين جوانحه . كان يعرف حقيقة ما يجرى خلف الباب ، فقد كان وهو غلام يرقب ما تفعله النسوة بالحلوى فى اهتمام ، حتى ان كل تفاصيل العملية حفرت فى ذهنه .

وعجز عن أن يكشف شيئا ، ولكنه رأى بعين خياله فردوس وهى شبه عارية ، قد اضطجعت وراحت تزيل الشعر من كل مكان ينبت فيه من جسمها ، فتدفقت الدماء حارة فى عروقه ، وراودته افكار ثائرة راحت تحرضه على أن يقتحم الباب ، وأن يطفىء النار المشبوبة فى أحشائه ، ولكنه كبح جماح نفسه جاهدا وعاد الى غرفته وهو فى شدة الانفعال . والقى بجسمه على الأريكة ، وأخذ ينظر الى عروق السقف وهو ساهم . وشرد بذهنه ، فاذا به يجد نفسه وهو غلام لما يتجاوز السادسة من عمره يلعب فى القاعة الى جوار أمه ، وفاطمة جارتهم الشابه المخطوبة التى تنتظر انتهاء موسم القطن لتزف الى زوجها تقبل وتقـــول انها وحدها وقد ضاقت بوحدتها وتلتمس من أمى أن تسمح له بالبقاء معها لمؤانستها حتى يقبل أحد من أهلها الذين ذهبوا الى الغيط .

ورأى أمه وهى تطلب منه أن يذهب فى نبرات راضية ، كانت سعيدة بذهابه لتتخلص من شقاوته ، أو لتبعده حتى تستطيع أن تفعل فى حرية ما تتحرج من أن تفعله أمامه ، ورأى نفسه وهو ينهض متثاقلا ، فهو يحب أن يكون الى جوار أمه دواما لا يفارقها .

واخذته فاطمة من يده وهى تداعبه ، واتجها الى دارها التى تبعد عن دارهم بضع خطوات ، ودخلا الى القاعة ، وأغلقت فاطمة الباب خلفها ، وسارت به حتى أوغلت فى القاعة ، ثم جلست فى الظلام وجذبته من يده وضمته الى صدرها ، وراحت تقبله .

فطن على الرغم من صغره الى أن قبلاتها تختلف عن قبلات أمه ، فقبلاتها حارة وأنفاسها التى ترتطم بوجهه أكثر دفئا وسرعة ،

وصدرها فى ارتفاع وانخفاض ، ويدها تضغط عليه فى قوة وانفعال .

وطلبت منه أن يلف ذراعيه حولها وأن يضمها ففعل ، واستشعر احساسا غريبا لما التصق صدره النحيل بصدرها الممتلىء ، وسكنت الراحة فؤاده ، فاستكان لها وتركها تفعل به ما تشاء ، وهو سعيد غاية السعادة بما تفعل .

واستلقت على الأرض وذراعيها حوله ، وجعلت تأتى أفعالا لم يشهدها من قبل ، وهو يتلقى كل ما تفعل مفتوح الاحساس ، يكتسب تجارب جديدة قبل الأوان ، واستمر لحظات يحس احساس النائم الذى يعيش فى رؤيا بهيجة .

وراح الوقت يمر وهو بين يديها ، يلبى رغباتها دون أن يجفل أو خشى فى أوصاله رعدة ، كان سعيدا بالدنيا الجديدة التى تتهتك أستارها أمام عينيه المبهورتين .

وتركته بعد أن عرف أشياء لا يعرفها أغلب شباب القرية الا ليلة الزفاف .

وصار يتردد عليها فى كل وقت تخلو فيه دارها من أهلها ، وما أكثر ما كانوا يتركونها وحدها ، وكان يمضى أغلب الوقت معها فى دعابة ولعب وعناق ، وأصبح يتبعها ككلب أمين لا يفارقها .

وكرت الأيام وهو سعيد بالعوالم الجديدة التى راح يجوس خلالها ، وجاء يوم زفافها فحملوها الى دار زوجها ، وهو واقف ينظر ، يحس احساس الطفل المدلل الذى سلبوه دميته .

وغابت فاطمة من حياته ، ونسيها ولكن لم ينس الدرس الذى لقنته ، فصارت لعبة (العروسة والعريس) هى اللعبة المفضلة عنده ،

راح يجمع غلمان القرية الذين فى مثل سنه ويجمع الفتيات الصغار ويخطب من بينهن عروسا لنفسه ، ثم يقوم الأولاد بالطبل والزمر والرقص واطلاق الزغاريد بينما يأخذ هو عروسه ويختلى بها فى ركن من بيت أو مكان مهجور ، ويأخذ فى ممارسة ما علمته فاطمة .

وراح يستعرض فى ذهنه فتيات القرية اللاتى لعب معهن لعبته المفضلة ، كن فتيات صغيرات غريرات بين يدى خبير مجرب ، وان لم يتجاوز السادسة .

وقفز بذهنه السنين ، ليفر من صور الصغيرات اللاتى لم تعد صورهن تثير فى نفسه شهوة ، ورأى حقلا ممتدا يبدو فى ضـــوء القمر كأنما أريق على نباته ذوب من الفضة ، وهو يلعب فيه مع بعض الرفاق من الأولاد والبنات « الاستغماية » كان على أعتاب الثانية عشرة ، وكان يتعمد أن يختفى مع فتاة نامية فى الجرن أو خلف الساقية ، وكان يطول اختفاؤهما ، يحاول أن يجر الفتاة الى ما كان يجر اليه الصغيرات الغريرات ، ولكنه يخفق فيكتفى بالضم والقبل .

وسرعان ما تزوجت الفتاة ، وقابلها بعد زواجها فى خلوة ، فأسرع اليها يقبلها ، فقالت له وهى ترنو اليه من طرف عينها :

ــ اننا لا نقبل الآن .

وحسب يومها أنها تحذره من الاقتراب منها ، ولم يفطن الى أنها كانت تدعوه الى ما يشتهيه الا الساعة وهو يتململ فى الأريكة ، ويدير وجهه ويمد بصره الى الباب الذى يخفى خلفه فردوس شبه عارية .

ونهض متوتر الأعصاب ، مرهف الاحساس ، تجرى الدماء الحارة فى عروقه ، وتهجس فى نفسه هواجس تستبد به وتدفعه دفعا الى حيث تختفى فردوس ، فيسير مسلوب الارادة حتى اذا ما دنا من الباب يستيقظ فجأة ، ويشتد وجيب قلبه ، وتسمره رهبة عرمة فى مكانه ، ويتلفت حوله وهو زائغ البصر .

ومس أذنيه صوت مفتاح يدور فى الباب ، فانخلع قلبه وطارت نفسه شعاعا ، وفر مرعوبا الى غرفته ، وهو يزفر فى صوت مسموع ، فزاد اضطرابه خشية أن يصل زفيره الى مسامع الشيخ القادم فيفطن الى مشاعره الخبيثة التى تطفح بها نفسه .

ودخل الشيخ سويلم وهو يتلفت فى ريبة ، فلما وقعت عيناه على عرفه وألفاه فى غرفته وحده أثلج صدره ، وسار الى غرفته وهو يضرب الأرض بقدميه ويتنحنح ليوهم فردوس أنه على عهده لم تنبت فى نفسه بذور الشك ، وأنه سليم القلب نقى الصريرة .

ودخل الشيخ غرفته ، واشرأب عرفه بعنقه ليرى بعينيه ما رآه بخياله ، ولكن الشيخ أوصد الباب خلفه فى رفق ، ومرت لحظات انطلقت بعدها ضحكة فردوس المنغمة الطويلة الداخرة بالنداء ، فأرهفت حواس عرفه جميعا ، واستيقظت فتوته فراح يغدو ويروح فى الغرفة وقد اتسعت عيناه ، يبلل شفتيه بلسانه .

وخرج الشيخ من الغرفة مسرعا وفردوس تشيعه بضحكاتها ، وذهب الى حيث كان عرفه ، فاذا بجميع مشاعر عرفه تموت فجأة ، ولم يبق الا نبض يتردد برهبة خفيفة ، تركت أثرا فى العيون المفتوحة .

واخذ الشيخ يجاذب الفتى الحديث فى ود ، يسأله عن المدرسة وعما يفعله فيها وعرفه يرد ردودا مقتضبة وهو مطرق ، وتحدث الشيخ طويلا ورفع عرفه عينيه ينظر اليه ، فوقع بصره على خيط رفيع من الحلوى على خده ، فتيقن أن فردوس كانت تداعبه بالحلوى ففر منها ، وهمت بسمة بأن تولد فى قلبه ، واذا بغول الغيرة يتحرك ويبتلع البسمة ، ويأخذ فى نهش جوفه ، فيطأطىء راسه اسفا ، وتنتشر مرارة نفسه حتى يكاد يتذوقها بفمه .

وخرجت فردوس من غرفتها ، وانطلقت الى المطبخ وظلت فى غدو ورواح لا يجرؤ عرفه على أن يخف اليها يعاونها وان كان يشتهى ذلك فى اعماقه ، ولا يلوى الشيخ عنقه ليراها خشية أن تلتقى عيناه بعينيها فيضحك برغمه ، وهو لا يحب أن يظهر أمام الصبى عابثا .

كان الشيخ يحب فردوس من كل قلبه ، يتمنى أن يشبع كل رغباتها ، ولكنه كان على ثقة من انه ليس كفئا لها ، فبينهما هوة من السنين سحيقة تعيب بالفتور علاقاتهما ، لذلك كان يسرف فى العطف والخضوع ويتحمل نزواتها راضيا ، لعل ذلك كله يعوض مالا يملكه .

وجاءت فردوس ووقفت عند الباب وقالت :

ـ تفضلا .

وتحرك الشيخ والشاب خلفه ، ومر الشيخ بفردوس وهو يغض من بصره ، ويكتم بسمة ولدت طلائعها على شفتيه ، ومر عرفه بها وراح يتفرس فى وجهها الذى اشتدت حمرته من أثر الحلوى فاذا بمشاعره تتيقظ ، وبقلق شهى يتحرك فى جوفه ،

وبرغبة عرمة تمور بين جوانحه ، وتسرى فى بدنه رعدة محمومة ، فقد ارتبطت الحلوى فى ذهنه بتصورات تثير شهواته .

وجلسوا حول الطبلية ، وقد أسبل كل منهم عينيه ، لم يكن أحدهم ليقدر ان تلتقى عيناه بعيون الآخرين ، ففى راس كل منهم فكرة يحرص على أن تظل سرا مكنونا .

وراح عرفه يأكل فى فتور ، وسرعان ما غادر الطبلية ، وانطلق الى غرفته وفتح كتابا واخذ يقرأ فيه ، ولكنه لم يفقه مما يقرأ شيئا ، كان مشغولا عن كل ما حوله بالأفكار المعربدة فى رأسه .

ودخل الزوجان غرفتهما وأوصدا بابها ، فنحى عرفه الكتاب وألقى به على الكنسول وتمدد فى فراشه وأرخى لخياله عنانه ، فرأى نفسه فى الدار فى القرية وقد نام مع أمه وأبيه وأخوته فى غرفة واحدة . كان يغمض عينيه وينام ملء جفنيه قبل أن يعرف فاطمة ، ولكنه بعد أن عرفها وعرف ما بين الرجل والمرأة كان يتظاهر بالنوم ويحاول أن يظل صاحيا ليرى ما يفعل والداه ، ولكن ظلام الغرفة كان ثقيلا ، وكان النوم يغلبه قبل أن يحس شيئا .

وراح يتململ فى فراشه ، وصورة فاطمة حاضرة فى ذهنه ، يتمثل ما كانا يفعلان فيزداد انفعاله وتزداد ثورة نفسه ، ومر الليل فى تصورات ولم ينم الا غرارا .

— ٥ —

كان الليل يرخى أستاره ، والهدوء شاملا لا يعكره الا نقيق الضفاضع ، ونباح كلب بعيد ، ونسيم الربيع يحمل أريج الحقول ، وراحت فردوس تتقلب فى الفراش وتغطى وجهها بذراعها وهى مسبلة جفونها ، كانت تخشى أن تفتحهما فيفر النوم من العيون .

وأخذت مشاعر الحب والحنين تنبثق فى أغوارها ، واندلعت نار الصبابة فى حناياها . واستشعرت رغبة مســتبدة تمور بين الضلوع ، فتقلبت على جنبها بحيث أصبح وجهها ناحية الشيخ الذى كان يغط فى نومه ، ولفت ذراعها حوله وضمته فى قوة ، لتسكت الصراخ المنبعث من كل مشاعرها ، وظل الشيخ فى سباته ، لا يحس النار المتأججة فى الجسد الصادىء الذى يهفو الى اطفاء الظمأ .

وفكرت فى أن تهز سويلم ، وأن تتعمد أن ترتطم به فى تقلبها حتى يطير النوم من عينيه ، ولكنها وادت الفكرة بعد أن ضاقت بها ، كانت واثقة فى أنه حتى لو استيقظ واستجاب لدعاباتها فلن يهدى عواطفها المشبوبة ، بل سيزيد أوارها ويزيد فى ضيقها .

وراحت تزفر حمم صدرها ، وتحاول أن تغرى النوم ليداعب جفونها ، ولكن احساساتها المتوترة كانت تطرد الكرى ، وتجلب الى ذهنها أخيلة توقظ مشاعرها ، وتثير وجدها .

وسرى فى الجو مواء قطة ، وراح المواء يتردد ويمتد حتى صار اشبه بالأنين ، كان مشحونا بدعوة صارخة للجنس ، فازدادت مشاعر

فردوس ارهافا ، وتضخمت رغباتها حتى ملأت جوانحها ، واحست كأن أبخرة من الاشتهاء تضغط صدرها حتى تكاد تكتم انفاسها ، فلم تستطع أن تظل راقدة ، بل جلست فى سريرها مبهورة النفس .

وراحت تتلفت حولها فالفت الكون كله يستشعر اقبال الربيع الا ذلك الجسد الفانى الملقى الى جوارها تتردد فيه الأنفاس كما تتردد فى منفاخ ، فضاقت به ، وتحركت فى أعماقها مشاعر البغض والكراهية .

وولدت فى راسها فكرة أن تذهب الى غرفة عرفه ، تصلح وضع الغطاء عليه ، لعل حركتها تقتل ثورة عواطفها ، واستراحت للفكرة فنحت الغطاء عنها ، وهبطت من السرير فى خفة ، ووقفت تصلح ثوبها ثم سارت على أطراف أصابعها حتى لا يستيقظ زوجها .

وخفق قلبها بين جوانحها ، وانتشرت مشاعر من القلق اللذيذ فى حناياها ، وانطلقت مسحورة تقودها عواطفها ، فقد صار رأسها هواء . ودلفت الى الغرفة الغارقة فى الصمت ، التى لا يقوى على تبديد ظلامها النور الخافت المنبعث من المصباح المعلق فى المطبخ ، فطافت بها احساسات غاية فى الرقة ما كان يعكرها الا ذلك الخوف الواهن الذى لا تدرى له سببا .

وتقدمت كالطيف الى حيث يرقد عرفه ، ووقفت تنظر اليه وقد سرت فيها رعدة ، وجعلت تتطلع الى وجهه طويلا ومشاعر كثيرة تتفجر فى جوفها ، وافكار غير واضحة بدات تبذر بذورها فى رأسها .

ووقعت عيناها على الغطاء الملقى على الأرض ، فمالت وتناولته

وراحت تبسطه على الفتى النائم ، ودنا وجهها من وجهه فاذا بأنفاسها الحارة تختلط بانفاسه ، واذا بيدها ترفع وتأخذ فى المرور على راسه فى حنان دافق .

وثبتت نظراتها على شفتيه ، فاشتد وجيب قلبها ، وجرى الدم حارا فى عروقها ، ومشى خدر لذيذ فى أوصالها ، وطافت بها غيبوبة

ووضعت شفتيها على شفتيه ، وأخذت تقبله وهى ترتجف ، وهتك السكون مواء القطة المشحون بالنداء ، فانهارت جدر حصونها المتداعية ولفت ذراعيها حوله ، وطفقت تضمه اليها فى جنون .

واستيقظ عرفه على الضم والقبل فأخذ لحظة ، ولكن سرعان ما أفاق من أثر المفاجأة وراح يندمج فى الجو الذى وجد نفسه فيه بغتة ، فلف ذراعيه حولها وجعل ضغطهما يشتد عليها كلما زادت حرارة مشاعره الفتية التى يثيرها أقل مداعبة .

ولفهما صمت لم يكن يعكره الا الأنفاس الملتهبة ، والهمسات المكتومة ، وصوت نشيج خافت ، وطفرت الدموع من عينى فردوس لم تكن دموع الندم على الخطيئة التى تمارسها ، ولا على الشرف المدنس ، بل كانت دموعا تنفس عن النشوة المتفجرة فى غزارة فى أغوارها والسعادة المعربدة فى كل خلجة من خلجات نفسها .

ومر الوقت وهما غائبان عن الوجود ، انفصلا عن كل شىء الا عن نفسيهما ، بل زاد احساسهما بذاتهما ، وخبت النار المتلظية فى الجوانح ، فانسلت فردوس وعادت وهى تسير على أطراف اصابعها ، وتصلح شعرها بيديها .

واندست فى الفراش ونظرت الى الشيخ الفانى الذى يغط فى

نومه ، فلم تتحرك مشاعر الاشمئزاز التى كانت تتحرك كلما قامت فى الليل وهى تتلوى من الظمأ وهو هادىء ساكن لا يستشعر ما تكابده من مشاعرها الثائرة .

ومدت يدها ورفعت الغطاء عليه وأحكمته حوله ، ثم تمددت وقد وضعت رأسها على كفيها وشردت تفكر فى اللحظات المترعة بالمتعة التى مرت بها ، فلم تختلج فيها خلجة ندم ، بل كانت تستشعر سعادة طاغية ، وتمنى النفس بحياة كلها لذة .

وارتسم على محياها رضا ، كانت تحس زهوا أنها انتقمت من المجتمع الذى ظلمها يوم قدمها ضحية الى ذلك الشيخ الذى لا يقدر عليها .

ومشى الفتور فى جفونها ، فنامت ملء عيونها ، وهى تشهق وتزفر فى انتظام ينم عن راحة تامة ، ورفت على شفتيها بسمة خفيفة تطوف دائما بالغارق فى حلم بهيج .

وأشرقت الشمس وهى فى نومها العميق ، وراح سويلم يغدو ويروح فى الغرفة وهو يتطلع اليها فى استغراب ، فما كانت تنام من قبل حتى هذه الساعة اعتادت أن تستيقظ معه فى الفجر تمد له القهوة ، وتلبى طلباته .

وتقلبت فى تكاسل وتمطت وفتحت عينيها فى فتور ، فلما وقعتا على سويلم ابتسمت وقالت :

ــ صباح الخير .

فقال وهو يرنو اليها فى ريبة :

ــ نوم العوافى . عينى باردة عليك .

فرفست الغطاء بقدمها ، ورفعت رجليها الى أعلى ، ثم قفزت من السرير فى حركة رشيقة واصبحت منتصبة على الأرض أمامه . واحست فى أعماقها أن عليها أن تفسر أسباب السعادة التى تشع من عينيها ، والتى تستشعرها فى كل حركة من حركاتها ، فنظرت الى زوجها فى خبث وقالت :

ـ حلمت بالأمس انك ..

ووضعت فمها على اذنه وهمست بكلمة ، ثم ضحكت ضحكتها الممدودة الذاخرة بالنداء وتحركت سعيدة ، وقبل أن تغادر الغرفة التفتت وقالت :

ـ اأعد الافطار الآن أم بعد أن استحم ؟

وقال فى صوت خافت :

ـ لا داعى للعجلة ، نفطر بعد أن تستحمى .

وسرت فى صدره غيرة لم يدر لها سببا .

- ٦ -

وصار سويلم يرقبها بعين ملؤها الريبة ، فقد أحس فى أعماقه أنها تبدلت بعد اقبال عرفه ، وأصبحت امرأة أخرى أكثر فتنة ، وأشد رقة وعذوبة .

بات كلما نظر اليها ورأى ازدياد تورد وجنتيها ، وتفتح نفسها ، وسريان حياة جديدة فى أوصالها يستشعر بالغيرة تلسع روحه وبالضيق يقبض صدره ، وبمرارة تعصف بكيانه ، وبحسرة قاتلة تكاد تكتم أنفاسه .

انها تتودد اليه توددا زاد على ما ألفه منها ، وكثر تقبيلها له ، ولكن قبلاتها تبدلت وصار لها طعم آخر ، لم تعد قبلات محمومة يحس حرارتها فى روحه وان عجز عن أن يستجيب لها ، ولا قبلات مجاملة ، ولكنها قبلات فيها رضا المرتوى وفرحة السعيد .

كان يرى تحت عينيها مولد تعاسة أخفقت ضحكاتها المنطلقة الزاخرة بالنداء فى أن تخفيها ، بل كانت تشعلها وتزيدها ضراما ، وقد اجتثت تلك التعاسة ونبتت مكانها سعادة عرمة كدرت صفو حياته ، فقد كانت توسوس فى نفسه باتهامات بشعة تزلزل أرجاءه ، وتثير فى روحه كوامن الكراهية والبغض والغيرة .

وبذر فى صدره الواهن قلق ، لم يعد يستطيع أن يستقر هادئا فى دكانه ، كانت فكرة خبيثة تقرع رأسه فجاءة ، وصورة مقيتة تجمع بين زوجه وعرفه تحتل خياله فيفزع ، ويعود الى البيت

مهرولا محموما ويضع المفتاح فى الباب ويديره فى حرص ، ويتقدم على اطراف أصابعه فيجدهما معا فى المطبخ أو فى غرفة الصبى ولكنه لا يرى ما يشفى غليله ، فيضطر الى ان ينتحل عذرا لعودته المفاجئة ثم ينصرف وهو حائر لا يعرف له شاطئا ، تعبث به أنواء نفسه ، وتلعب به أمواج مشاعره المتقلبة العنيفة .

وأحس بها ذات ليلة وهى عائدة من غرفة الصبى فاشتد اضطرابه ، وربا قلقه ، وخنق قلبه فى عنف ، فانتصب جالسا فى سريره ، وقال فى صوت متهدج نم عن انفعالات نفسه :

ــ اين كنت ؟

فلم تجفل ولم تضطرب ولم تقل انها كانت تقضى حاجة ، بل قالت فى هدوء :

ــ كنت فى غرفة عرفه أحكم الغطاء عليه .

وصعدت الى جوار زوجها المنفعل ، وقبلته قبلة هادئة ، ثم تمددت فى فراشها وسرعان ما مشى الوسن الى أجفانها ، وراحت انفاسها تتردد فى اطمئنان ، وظل هو يرمقها فى قلق يراوده شك قاتل ، وخطرت له فكرة أن يضغط على عنقها الجميل بيديه ويكتم انفاسها ، ومال نحوها واذا به يطبع على خدها قبلة .

كان يحبها من كل قلبه ، وكان فى قرارة نفسه يحس أنه عاجز عن اطفاء ظمئها ، فكان لا يبخل عليها بشىء يملكه ، ويبالغ فى ارضائها لعله يعوضها عما لا يستطيع أن يمدها به ، فكان يغفر لها بعض نزواتها ، واذا ما فعلت ما يثير غيرته انفعل مدة ، وراح خلالها يجهد

نفسه فى ايجاد المبررات التى تشفع لها عنده ، ويستمر فى اقناع ذاته المتمردة حتى ترضى ، وتنقشع السحب المتلبدة فى صدره .

كان هانئا قبل ورود ذلك الصبى ، ولكن صفو حياته تكدر بعد أن جاء عرفه الى البيت واصبح موضع اهتمام فردوس ، فقد أصبح يقاسى وخز مشاعره ، ولسع سخريته من نفسه لغيرته من غلام أصغر أولاده اكبر منه !

وعاد بعد الغروب كما اعتاد أن يعود كل يوم ، وقد وطن العزم على أن يطرق الباب وأن ينتظر حتى تفتح له زوجه ، ففى هذا ايحاء بالثقة فى نفسه وفى زوجته ، ولكن ما ان بلغ الباب حتى أخرج المفتاح واداره فى الباب فى حرص شديد ، ودخل على أطراف أصابعه يتلفت .

كانت فردوس فى غرفة عرفه ، الصبى ممدود فى فراشه وهى تميل فوقه فى حدب وتمرر يدها على جبهته فى حنان ، وانقبض قلبه وأحس كان يدا قوية تهصره هصرا ، ومطرقة هائلة تدق رأسه ، وظلمة من الحنق تتسدل على ذاته فتعمى وعيه ، فيتقدم مسلوب الارادة ، كل [illegible] جارفة تغريه بالبطش بهما .

وشعرت فردوس به فلم تجفل ، ولم ترفع يدها عن جبهة الفتى ، بل زادت دنوا منه وميلا عليه ، وقالت فى هدوء :

ـ سويلم ، ناولنى ليمونة من المطبخ .

ووقف سويلم ينظر مشدوها ، دون أن ينبس بكلمة ، كان غضبه قد بلغ نهايته ، وكان نفسه يتردد متتابعا فى صدره ، وقالت فردوس :

ـ عرفه محموم ، اظن انه سار مدة فى الشمس .

وسرعان ما تبخرت مخاوف سويلم ، وصفا جوفه وسلم قلبه ، فقال ناصحا :

ـ صبى فى أذنيه ماء وملحا .

فقالت فردوس وهى ترفع عرفه بين يدها وتصلح الوسادة تحت رأسه .

ـ آتنى به .

وذهب الشيخ الى المطبخ يذيب الملح فى الماء ، ومالت فردوس على الصبى تقبله وتضمه الى صدرها .

وعاد الشيخ بكوب به ماء أذيب فيه ملح ، ومدت فردوس يدها لتأخذ منه الكوب ولكنه تقدم وراح يصب الماء فى أذنى الفتى ، ولما انتهى من عمله التفت الى فردوس وقال :

ـ من الأفضل أن نتركه وحده يستريح .

وسار وهو يحسب أن زوجه ستتبعه ولكن فردوس بقيت الى جوار الفتى تزيد حرارته ارتفاعا بقبلاتها .

ودخل سويلم غرفته وأخذ يخلع ثيابه وحده وهو يستشعر ضيقا ، وتريث ولكن فردوس لم تقبل ، فنادى :

ـ فردوس... فردوس .

فأقبلت متبرمة وقالت :

ـ ماذا تريد ؟

فقال وهو يشيح بوجهه عنها . حتى لا ترى الكدر فى عينيه :

ـ أعدى العشاء .

وذهبت الى المطبخ ، وسرعان ما كان الطعام معدا ، وعادت الى زوجها وقالت :

ـ العشاء عندك .

وهمت بالانصراف ، فقال لها :

ـ الا تأكلين ؟

ـ كل أنت .

وانطلقت الى غرفة عرفه ، وجلس الزوج يتناول طعامه وهو يتلفت ، يحس كراهية لذلك الفتى الذى سلبه زوجته ، وجعله يأكل لأول مرة وحده .

وقام الشيخ ولم يسغ طعامه ، ودخل غرفته وجلس ينتظر عودة فردوس ، ولكنها ظلت الى جوار الفتى تمرضه ، فضاق صدره ونفذ صبره ، ونادى فى انفعال :

ـ فردوس .. فردوس .

واتجهت فردوس اليه وهى ضيقة بندائه ، ووقفت أمامه وقالت فى استخفاف :

ـ نعم !

فقال غاضبا :

ـ نريد أن ننام .

فقالت وهى ترفع الغطاء عن السرير :

ـ السرير أمامك .

فاتسعت عيناه الضيقتان ، وقال فى انكار :

ـ وأنت ؟

ـ كيف أتركه وحده وهو مريض ؟ !

فقال فى فزع :

ـ اتقضين الليل فى حجرته ؟

فقالت فى هدوء وهى تبتسم :

ـ وماذآ فى ذلك ؟ !

ـ واين تنامين ؟

ـ على الأرض بجوار فراشه ، حتى اذا احتاج الى شىء لبيت نداءه .

فقال الشيخ فى انفعال :

ـ لا . لن يكون شىء من ذلك .. ستنامين هنا فى سريرك .

وأحست الثورة فى نبراته ، فقالت وهى تدنو منه وتداعبه :

ـ لا تحزن ، سأنام الى جوارك :

وأخذت فى اعداد فراش على الأرض بالقرب من السرير ، فقال الشيخ فى دهش :

ـ ماذا تفعلين ؟

فقالت دون أن تلتفت اليه :

ـ سينام معنا حتى لا أضطر الى أن أذهب اليه مرارا فى الليل لأطمئن عليه .

فقال فى ضيق :

ـ ألا تتركينه وحده فى غرفته ليستريح ؟ .

فقالت وهى تدنو منه وعيناها فى عينيه :

ـ انه مريض .

ومالت على الشيخ وطبعت على خده قبلة لم يرتح لها ، بل حركت وساوسه ، بات يخشى ذلك العطف الذى تغمره به مذ قدم عرفه الى داره ، ومارت فى جوفه انفعالات تنهش صدره ، ولكنه ظل مطرقا لا تتحرك شفتاه بكلمة .

وانطلقت الى عرفه ، وطلبت منه أن يقوم لينام معها ومع زوجها فى غرفة واحدة ، ولكنه أبى فظلت توسوس له وتغريه حتى أطاعها وسار الى جوارها .

كانت حرارة عرفه مرتفعة قليلا ، ولكنه ما كان يحس توعكا . ولو تركته فردوس لعكف على استذكار دروسه ، أو لنام ملء جفونه .

ودلف الى غرفة الزوجين فتظاهر بالاعياء ، حتى خيل للشيخ أن الفتى ينوء ، وسندته فردوس بذراعها ومالت معه وهو يميل ليتمدد فى الفراش المبثوث على الأرض .

وراح الزوج يتلفت فى حيرة ، وقد ملأ الحنق صدره ، وتحرك حياؤه فتملكه خجل من أن ينام الى جوار زوجه وفتى غريب معهما فى غرفة واحدة .

وذهب الى المصباح وخفت ضوؤه ولو طاوع نفسه لكتم أنفاسه وترك المكان فى ظلام دامس حتى لا يراه الفتى اذا التصق جسمه بجسم فردوس عفوا ، وحتى لا تقع عيناه على ساقيها اذا انحسر الغطاء عنهما .

وسار الشيخ نحو السرير وقد تقاصرت نفسه ، وصعد باليه

فى حرص وخفة ، وأخذ يتمدد هونا حتى لا يئن السرير ويبلغ أنينه مسامع الفتى الراقد على بعد أمتار منه .

ومدت فردوس يدها وتناولت قميص النوم ، فخفق قلب الشيخ فى شدة ، واستولى عليه هلع خشية أن تخلع ثوبها فى الغرفة وتقف نصف عارية تحت بصر ذلك الذى شاركه غرفة نومه رغم أنفه . وفكر سريعا فيما يفعله لو همت بخلع ثوبها دون أن يلفت نظر الفتى ، فقر رأيه على أن يقفز من سريره وأن يدفعها أمامه وهو يحجبها بجسمه عن الراقد على الأرض ويجرفها أمامه حتى تخرج من الغرفة .

وتحركت فردوس وقميص النوم فى يدها ، وغادرت المكان ، فزفر الشيخ فى راحة ، وان ظلت أعصابه متوترة ، ومرت لحظات من الصمت عادت بعدها فردوس وقد ارتدت قميص النوم ، وفى يدها ثوبها .

وعلقت الثوب فى المشجب ، وذهبت الى السرير وصعدت فيه ونامت فى الطرف الذى يطل على عرفه النائم على الأرض ، وابتعد الشيخ عنها واستقر على الطرف الآخر .

وراح الوقت يمر ، وانتظم نفس الشيخ ، ثم راح يغط غطيطا ، فرفعت فردوس وسطها وجعلت تتفرس فى وجهه وتيقنت من نومه ، ولكنها أرادت أن تتأكد أنه راح فى سبات فهزته هزا خفيفا ، واصلحت وضع رأسه على الوسادة ، فخفت شخيره ، وان ظل غارقا فى النوم .

ونحت الغطاء عنها فى خفة ، وانسلت من جواره كما تنسل الأفعى ، وعيناها لا تفارقان وجهه ، ثم رقدت على الأرض الى جوار عرفه ، وانسدل عليهما غطاء واحد .

- ٧ -

عاد سويلم الى البيت قبل اذان المغرب ، فقد احتلت ذهنه فكرة اختلاء فردوس وعرفه والشيطان ، فأحس ضيقا وقلقا ووحشا قاسيا ينهش جوفه ، ولم يستطع أن يصبر على قسوة مشاعره ، فانطلق مفزوعا ، مكروب النفس الى الدار .

ووضع المفتاح فى حرص ، واداره فى أناه ، ودقات قلبه تدوى فى اذنيه ، وفتح الباب وقبل أن يتقدم خطوة وقف مشدوها حائرا يفرك عينيه بظهر يده ليزيح الغشاوة التى انسدلت فجأة على عينيه ، خيل اليه أنه راي فردوس وعرفه يبتعد أحدهما عن الآخر فى فزع ، وراح وهمه يؤكد له أن فمها كان على فمه ، ولكنه لم يكن واثقا من اتهام أوهامه فقد خانه بصره ، لم ير شيئا واضحا ، كل ما احسه حركة سريعة لا يدرى ان كانت حقيقة أو وهما من الأوهام .

وتقدم خطوات ، وريبة قاتلة تستولى عليه ، ويدا قوية تهصر فؤاده ، ومر بين فردوس وعرفه وهو عابس الوجه ، ولم يلق عليهما تحية ، ولم ينبس بكلمة ، وقد اسبل جفنيه على عينيه ، خشى أن يقع بصره على أحدهما فيفلت منه زمام نفسه ويتدفق السباب والاتهام من فمه دون وعى .

ودخل غرفته وفردوس فى اثره ، وأحس الباب يغلق عليهما فربا قلقه ، وزاد اضطرابه لما تقدمت فردوس منه واخذت تعاونه على خلع ثيابه ، وهو يتحامى أن تلتقى عيناها بعينيه .

وجلس على مقعد قريب من السرير يفكر فى حقيقة مشاعره الثائرة بين جوانحه وهو يتطلع الى فردوس من بين اهدابه فيحيره ذلك الهدوء الذى يغشاها ، وكادت النار المندلعة بين ضلوعه تخبو والهواجس التى تمور فى أغواره تسكن ، ولكن فردوس تقدمت منه وطوقته فى دلال وقبلته قبلة طويلة لم يستشعر حرارتها ، ولكنه أحسها سما زعافا يسرى فى بدنه .

وسرت فيه قشعريرة ، وهاجت وساوسه ، وتضخمت ريبته ، وزادت النار المشتعلة فى جوفه تأججا ، وراح هاتف من نفسه يؤكد له أن ما رآه حقيقة وقعت وليس وهما من الأوهام .

وأخذت فردوس تتحدث وتضحك ضحكتها الممدودة الزاخرة بالنداء ، وهو لا يعى مما تقص شيئا ، فقد كان مستغرقا فى المشاعر المنبثقة فى أغواره ، مصغيا لوسوسات الاتهام .

وقالت فردوس :

ــ سأعد العشاء .

وخرجت من الغرفة وهو غافل عنها ، وان كانت أفكاره ومشاعره وخلجات نفسه وخفقات قلبه ركزت أضواءها عليها ، وراحت تحاول جاهدة أن تهتك الظلمة التى تغلفها لتبدو حقيقتها عارية بلا أستار .

ومر الوقت دون أن يشعر به ، كان فى شبه غيبوبة ، فقد فاضت مشاعره حتى غمرته ، وكاد يفقد الاحساس ، وأفاق على صوت فردوس وهى تقول .

ــ تفضل .

وقام صامتا ، وسار الى حيث وضعت الطبلية وقبل أن يجلس ارتفع صوت فردوس ينادى :

ـ عرفه .. عرفه . تعال .

وخيل للشيخ أن فى صوتها رقة ، وان له نغمة خاصة حانية ، وأنه زاخر بالانفعالات ، وان نطق اسم الفتى نم عن مشاعر كثيرة كامنة فى أعماق النفس الغامضة ، فاضطرب الشيخ حنقا ، واستبد به الأسى .

والتفوا حول الطبلية ، وامتدت الأيدى الى الصحاف ، وساد الصمت وراح الشيخ يرصد حركات الزوجة والفتى من بين أهدابه المسبلة . والتقت عينا فردوس بعين عرفه أكثر من مرة ، كانت نظراتهما عابرة لا تفضح شيئا ، وتظاهر الشيخ بالانشغال عنهما بورك الدجاجة الذى كان يعالجه بيديه ، وانتهزت فردوس الفرصة ورمزت بعينها لعرفه فى خفة ، ولمح الشيخ ما فعلت ، فاحس كأن خنجرا سدد الى قلبه ، وتقيحت نفسه حتى خطر له أن يلقى بما فى يده فى وجهها وأن ينقض على الفتى ينشب أظافره فى صدره .

وراحت تفاحة آدم الناتئة فى عنقه تتحرك صاعدة هابطة ، كان يجاهد فى ابتلاع ريقه الذى جف ، وعافت نفسه الطعام فطفق ينظر زائغ البصر دون أن تتحرك يده .

وفطنت فردوس الى أنه لا يأكل ، فرمقته برهة ثم قالت :

ـ لماذا لا تأكل ؟

وشاءت أن تداعبه فقالت له :

ـ لعلك تزوجت وأكلت عند زوجتك الثانية !

وضحكت ضحكتها الممدودة الزاخرة بالنداء ، وابتسم عرفه وغض من بصره خشية أن تلتقى عيناه بعينى الشيخ ، واحس الشيخ قهرا ، ولم تتحرك شفتاه وان كانت ألفاظ السباب القاذعة تتدفق مع أنفاسه دون أن تخرج من فمه .

وابتعد عن الطبلية ، وقالت زوجه وهى تشير الى صفحة بها عسل نحل :

ــ كل عسل .

ورن فى أغواره صوت ساخر يردد : « كل عسل مع الناس كل عسل مع الناس » فانتفض وانتصب واقفا ليطرد ذلك الصوت الذى يخزه وخزا قاسيا ويلهب روحه بسياط الاستهزاء ، وانطلق الى غرفته وطفق يغدو ويروح وهو يشهق ويزفر فى صوت مسموع .

وراح صوت هادىء يعيد على مسامعه قصة الشيخ الذى شكا اليه تلاميذه سوء سلوك زوجته الجميلة وظلوا يزينون له الانفصال عنها حتى طلقها ، وزوجوه امرأة شريفة دميمة وجاءوا اليه بعد مدة يسألونه رأيه فى الزوجة الجديدة فقال لهم : كنت آكل عسلا مع الناس ، فأصبحت آكل الزفت وحدى . ورن فى اغوار سويلم الصوت الهازىء : كل عسل مع الناس ، فثارت نفسه ، واخذ يمرر يده على وجهه ليمسح المشاهد البشعة التى بدأت تتشكل فى ذهنه .

واحس سويلم احتقارا لذلك الشيخ الذى سمح لنفسه أن تعترف بأنه كان يأكل العسل مع الناس ، كيف رضى لنفسه هذا

الهوان ؟ كيف رضى أن يمرغ شرفه فى الوحل فى يسر ؟ وراح يسب ذلك الشيخ ويلعنه كأنما كان واقفا أمامه ، وسرعان ما استشعر تقاصرا فقد خيل اليه أنه يسب نفسه .

وتلبدت ريبه وأوهامه فى صدره ، واشتدت نفسه قتاما ، فانهال فى خياله على فردوس وعرفه ضربا ولطما وصفعا ، واخذ يلتقط انفاسه فى جهد كانما يلتقطها من ثقب ابرة .

ودخلت فردوس الغرفة ، وأغلقت الباب خلفها ، واتجهت الى زوجها الذى كان يتحاشى أن تلتقى عيناه بعينيها ، وقالت :

ـ انت مشغول البال الليلة ، فيم تفكر ؟

فقال دون أن يلتفت اليها :

ـ لن أقبل عرفه فى بيتى بعد هذه السنة .. لن اقبله أبدا .

وطارت نفس فردوس شعاعا ، وقالت فى خوف :

ـ لماذا ؟

ـ لاننى لا أطيق أن ارى رجلا غريبا فى بيتى .

فقالت فردوس وهى تجمع شتات امرها :

ـ رجل ؟ .. غريب ؟ انه طفل .. تلميذ فى مدرسة ، وسيظل طفلا حتى يتم دراسته .

فقال سويلم فى انفعال :

ـ انه رجل ، ولو تزوج لانجب أولادا .

فقالت فردوس فى تحد وقد أفاقت من المباغتة ، وملكت زمام عواطفها :

ـ وحتى اذا كان رجلا سيظل فى بيتى ، انه قريبى ولن اقبل أن يقال اننى ضقت بقريبى وأوصدت بابى دونه .

ـ وانا لن أقبل ابدا ان يقال ان بابى مغلق على زوجتى ورجل غريب .

ـ لا تقل « غريب » انه قريبى . ابن خالتى .

ـ انه ليس ابن خالتك ، وحتى لو كان ابن خالتك ألا يحل لك ؟ !

ـ ولكننى فى عصمة رجل .

وأحس هوانا ، فما كان يثور هذه الثورة لو كان ما يزال شابا ، ولكنه شيخ ذابل جفت ينابيعه وهى ظمآنة . ان غيرته تزيد غضبه ضراما ، فقال فى انفعال :

ـ لن يعود عرفه الى دارى بعد هذه السنة .. لن تطأ قدمه بيتى .. هذا قرارى .

فقالت فردوس وقد اتسعت عيناها :

ـ اذا أصررت على ألا يعود سأذهب معه .

ـ ماذا تقولين ؟ تذهبين معه ؟ !

فقالت وهى تتظاهر بالانكسار :

ـ نعم . سأذهب معه حتى يعرف أهلى أننى غلبت على أمرى ، وان هذه مشيئتك .

وضايقتها فكرة بعد عرفه عنها ، فأجهشت بالبكاء وقالت فى عبارات تخنقها العبرات :

ـ لو كان قريبك ما فكرت فى طرده ، ولكنك تطرده لأنه قريبى ، لأنك تريد أن تذلنى بين أهلى .

وصاحت وهى تبكى تدافع عن حياتها الجديدة التى تعلقت بها ، والتى يتهددها الدمار :

ـ لن أقبل هذا الذل ابدا .. لن اقبل هذا الذل ابدا .

ورأى الشيخ الدموع المنهمرة على خديها فألجم لسانه ، وان كانت انفعالاته الثائرة تمور فى أغواره . وسار مطرقا نحو السرير ، وصعد اليه واستلقى على ظهره وشرد ببصره ينظر الى عروق الخشب فى سقف الغرفة ، وصدره ينتفخ كالقربة ثم ينكمش كمثانة انفجرت فجـــأة .

وانسلت فردوس الى السرير وهى تبكى ، ونامت وقد أعطت ظهرها لزوجها ، اعلانا لخصامها وعدم رضائها عنه واستمرت فى نحيبها وهى تتعمد أن يكون مرتفعا ليصل الى مسامع الزوج ، ويفعل به أفاعيله .

وراحت خلجة رقيقة تنبض فى جوفه ، ثم تحركت مشاعره الرواقص تتقدم فى حنان فى صدره لتطرد من أمامها احساسات الأسى ، وصفت نفسه وافعمت بالرقة ، وخطر له أن يمد يده يمسح دموعها وأن يضمها الى صدره ولكنه راح يقاوم هذه المشاعر حتى لا يبدو أمامها ضعيفا متهالكا .

وتململ فى رقاده ،، ودنا قليـــلا منهـــا وهم بأن يمرر يده على شعرها فى حنان ولكنه كبح زمام رغبته ، وراح الوسن يداعب عينيه ، فاطبق جفنيه واستسلم للكرى .

وكفكفت فردوس دموعها ، واستشعرت رغبة جامحة تستبد

بها ، انها تحن الى ذراعين قويتين تلتفان حولها ، وصدر حنون يحتويها وأنفاس حارة تذيب المشاعر القلقة المنبعثة فى أعماقها .

ونظرت من فوق كتفها الى الشيخ الراقد الى جوارها فألفته يغط فى نومه ، فانسلت من جواره فى خفة ، وسارت على أطراف أصابعها وهى مسحورة بالاحساسات الناعمة التى تدغدغ حواسها ، والقلق الشهى الذى يدب فى روحها ، والوهم الكبير الذى كان يقودها .

ودلفت الى غرفة عرفه وقلبها يدق دقا رقيقا ، ودماؤها تتدفق حارة فى عروقها ، وشبه غيبوبة تغمرها ، وارتمت على الفتى لتذوب فيه ، وتطمئن الى أنه معها ، لا يفرق بينه وبينها شىء .

ومر الزمن يطوى فى جوفه أسرار البشر ، وتقلب الزوج فى سريره ، وأحس أنه يتقلب فى حرية دون أن يرتطم جسمه بجسمها أو تحتك قدمه بساقها ، ومد يده يتحسس فلم يجد الا فراغا ففتح عينيه مفزوعا ، ودق قلبه فى عنف ، وتدفقت انفعالاته فى ثورة ، وأدار عينيه فى المكان وهو زائغ البصر ، فلما لم يجدها انبهرت أنفاسه ، وغادر السرير وهو يكاد ينهار من الكمد .

وتقدم وقلق شديد يجتاحه ، وريبة قاتلة تزلزل كيانه ، وخوف من المجهول يستبد به ومشاعر ثقيلة تجثم على صدره ، وبلغ باب الغرفة فألفاها قادمة تصلح ثيابها ، منكوشة الشعر ، متوردة الخدين ، حافية القدمين، فقال لها فى صوت متهدج مضطرب :

ـ أين كنت ؟

فقالت دون أن تضطرب :

ـ فى دورة المياه .

والجم ولم يجد ما يقوله ، فذهب الى حيث وضعت القلل ، ورفع قلة وجعل يتجرع الماء منها فى صوت مسموع ، وأحس الماء البارد يجرى فى جوفه ، ولكن لم تنطفأ النار المندلعة فى حشاياه .

وعاد الى فراشه وهو يحاول أن يبدو هادئا ، ولكن الأفكار البشعة وجدت مرعى خصيبا فى راسه فراحت تتضخم وتضغط عليه فيئن أنينا مكتوما يدمى روحه ، ويزيد أساه .

وراحت أوهامه تؤكد له أنها كانت هناك ، فى غرفة عرفه ، بين أحضان الفتى ، فأحس كأن طعنة خنجر سددت الى قلبه ، والتفت اليها فى حنق فألفاها مسبلة العينين ، مستسلمة للنوم الهادىء اللذيذ ، منتظمة الأنفاس ، فربا ضيقه وثبتت أنظاره على عنقها الطويل ونحرها العارى وراودته فكرة أن يقبض بيديه على عنقها وأن يضغط عليه حتى يزهق روحها ، ولكنه راح يطرد الفكرة من رأسه ، أنه يحبها .. يهواها يريدها لنفسه خالصة ، انه عرفه الذى ينبغى أن يبعد ، أن يزال من طريقه ، أن يختفى من حياتها .

وطفق يفكر فى عرفه ، وفيما يفعله به ليتخلص منه ، ونبتت فى راسه افكار كثيرة ، راح يقلبها ويقارن بينها ، وأخيرا ارتاح الى فكرة بعينها ، فوطن العزم على انفاذها .

- ٨ -

ألقى عرفة ورقة الامتحان على الكنسول ، وخلع ثيابه وارتدى جلبابه المخطط وارتمى فى الفراش وأرخى لخياله العنان ، فلم يفكر فى الأيام الباقية على انتهاء امتحان آخر السنة ، ولا فى رفاق المدرسة ولكن شغلت رأسه دارهم المتواضعة فى القرية ، وأمه الجالسة فى ركن من القاعة تعد الطعام وأخوته حولها يتصايحون ، وأبوه وهو مقبل من عمله والشمس تلفظ آخر أنفاسها ، وصوت مؤذن القرية يؤذن بالمغرب يدعو الناس الى الصلاة والأوبة الى دورهم .

وثبتت فى جوفه مشاعر رقيقة ، واستشعر حنينا الى أهله ، فخفق قلبه شوقا وانتابه ضعف فغص وترقرقت الدموع فى مآقيه ، فراح يمسحها بظهر يده فى راحة ، وقد استسلم للأفكار اللذيذة النابضة فى ذهنه .

وافعم بالشوق ، وتحرك ليفعل شيئا يطمئن به مشاعره الهائجة فغادر فراشه وراح يصر حوائجه فى « البقجة » التى جاء بها من قريته ، وهو مشبع بالغبطة ، يتمنى أن تطوى الأيام الباقية سريعا ليعود الى حياة القرية التى يشتهيها .

ودلفت فردوس الى الغرفة ، ووقفت ترقبه مليا وهى تعجب ، وراحت تتساءل فى نفسها عما يدفعه الى تجهيز حوائجه وأمامه حتى

ينتهى امتحانه ثلاثة أيام طويلة ! ان دقائق قليلة كفيلة بوضع كل ما يملك فى الصرة .

وهمس فى ذاتها هامس يسأل : أيسافر الى أهله عقب انتهاء امتحانه مباشرة ؟ أيتركها للظمأ بعد أن وجدت عنده ما يروى غلتها، واذا أراد أن يسافر أتتركه أم تغريه على البقاء ؟

ما الذى يغريه على العودة ؟ ! ألا يجد عندها مالا يجده فى داره ؟ انه ينعم بغرفة وحده ، ويأكل كل يوم طعاما ما كان يأكله الا في الأعياد ، ويسعد بها . الا يكفيه كل هذا ليبقى ؟ !

واحست ضيقا ، فطنت من حركاته انه يتعجل الزمن ليتركها ، آه لو ذهب لصارت حياتها فراغا ، انها لا تطيق أن تتصـــــور أنه سيتركها ، ليتها تجد عذرا تتحمله لتعود معه الى القرية ، أو ليت سويلم يغضب منـــهاويأمرها أن تذهب الى أهلها ، فتنطلق معه سعيدة لا تفارقه حتى تنقضى اجازته :

ان هذا الفتى ملأ حياتها ، أذاقها مالم تذقه طوال سنين زواجها ، خفق له قلبها خفقات شهية ، شغفت به حبا ، أكانت تصدق أنها ستهيم يوما بصبى لما يتجاوز الخامسة عشرة !

وتقدمت منه ، وقالت وهى تبتسم :

ـ من يراك وأنت تصر ثيابك يحسب أنك مسافر الساعة ؟

وسرعان ما غاضت ابتسامتها ، كان رنين صوتها فى جوفها مقبضا ، فقالت فى صوت فيه أسى :

ـ لماذا هذه العجلة ؟

فقال عرفه وقد شرد ببصره بعيدا :

ـ أحس شوقا طاغيا الى امى وابى واخوتى بل الى جدران دارنا ، اتمنى أن أغمض عينى فأجد نفسى بينهم .

فرنت اليه بعيون مفتوحة ، وتحركت عقارب غيرتها ، ولم تستطع ان تكبت مشاعرها ، فقالت فى عتاب :

ـ وأنا ؟

فنظر عرفه اليها نظرة بلهاء ، لم يفهم ماذا تريد ، فقال فى حسيرة :

ـ ماذا ؟ .

فقالت فى صوت متهدج :

ـ هل ستذكرنى ؟ هل ستشتاق الى ؟

فقال دون ان يضطرب ، أو تطرف عيناه :

ـ طبعا .

وكان كاذبا فى قوله ، لم تخطر له على بال لما فكر فى عودته الى أهله ، ولم يستشعر حسرة لأنه سيخلف وراءه شيئا يحبه ، انها دخلت حياته كما دخلت الفتيات اللاتى عرفهن قبلها ، لقد كان لها سحر أول عهده بها ، ولكنها لم تترك فى قلبه أثرا ، لم تزد فى نظره عن فتاة لعب معها لعبته المفضلة ثم عاد كل منهما الى بيته :

احس نحوها مرة احتقارا ، وفكر فى أن يفر منها ، ولكن حتى ذلك الاحساس تبخر ، وصارت بالنسبة اليه شيئا يقضى معه لحظات مترعة بالمتعة الجسدية ثم يمر كل ما أحسه مرور الأنفاس التى دخلت رئتيه وخرجت منها دون أن يذكر من ذلك شيئا :

ـ ورن صوته فى أذنى فردوس زاخرا بالرياء ، لم يكن له تهدجات اضطراب المحبين ، ولم يكن له ذلك الطعم اللذيذ الذى كانت تتذوقه لما كان يهمس لها بألفاظ تافهة أول عهدها به ، واستشعرت ضيقا ، وامتلأت رغبة فى أن تنتزع منه اعترافا بحبه ، فقالت له :

ـ أتحبنى ؟

وأرهفت حواسها ، كانت تتمنى أن يقول لها انه يعبدها وانه لا يستطيع أن يعيش بدونها ، ولكنه قال فى بساطة :

ـ طبعا .

وثارت مشاعرها ، وسرت فى بدنها رعدة ، وانسدلت على عينيها غمامة فلم تعد ترى شيئا ، وغمت عليها احساساتها ، وأرادت أن تقضى على ذلك القلق الذى تفجر فى أعماقها ، فتقدمت اليه وضمته الى صدرها ، وراحت تقبله فى نهم وانفعال ، وسرعان ما استجاب لندائها .

وعادت الى غرفتها هادئة ، وتمددت فى فراشها وقد أسبلت عينيها فى استسلام ، وبدأ الوسن يداعب جفونها ، واذا بسؤال راح يتدسس الى رأسها : هل الاستجابة دليل الحب ؟ وشغل

تفكيرها بالسؤال والاجابة عنه ، وراحت توهم نفسها أن استجابته لها دليل على حبه ، ولكن وساوس الشك كانت تبتلع الأوهام .

وباتت تترجح بين أفكارها حائرة ، لم تكن واثقة الا من شيء الا وهو أنها تحبه وأنها تتمنى ان تقضى ما بقى من عمرها معه ، آه لو كان أكبر من سنه ، وقادرا على أن ينفق عليها ، وأشار لها بأصبعه أن تتبعه ، لفرت معه دون تردد أو تفكير فى مغبة ما تفعل .

وجاء الليل ، وأغلق باب الغرفة عليها وعلى زوجها ، فراحت تتمسح به وتداعبه وتضع قبلاتها حيثما تقع ، فأوجس سويلم خيفة ، وأخذ يتأهب لسماع رغبة جديدة من رغباتها .

ولفت ذراعها حول رقبته واسندت راسها على كتفه ، فراح شعرها يداعب خده الخشن الخائر ، وقالت فى صوت منكسر مشحون بالرقة والرجاء :

ـ سويلم ، اشتقت الى أهلى ، اريد أن أزورهم .

فقال سويلم فى نبرات هادئة :

ـ هل لك أهل غيرى بعد أن ماتت أمك ومات أبوك ؟ ألم تقولى لى انك أمى وأننى أمك وأبوك ؟ !

فقالت وهى تزداد التصاقا به :

ـ أنت الخير والبركة ، ولكننى أحن الى زيارة قبر أبى وأمى ، ورؤية خالتى وأبناء خالتى .

ـ وهل زارك أحد منهم ؟

فقالت فى صوت حالم :

ـ الم يبعثوا الى عرفه !

واحس كأن خنجرا صوب الى قلبه ، واذا بخاطر يزحف الى راسه يهمس بأنها لا تبغى زيارة قبر أمها وابيها ، ولكنها لا تطيق فراق الفتى ، تريد أن تكون معه ، فاهتز كيانه وانقبض صدره وثارت مشاعره ، وهم بأن يصيح فيها ، ولكن ضغط احساساته الشديد حبس صوته وكاد يكتم أنفاسه .

وكانت فردوس تهيم فى امانيها ، فلم تحس انفعال الرجل الملتصق بها وقالت وهى شاردة ببصرها وذهنها معا :

ـ سأسافر مع عرفه وسأنتظر حتى تأتى لتأخذنى ، ما اجمل هذا ، سيعيد أيام سعادتى سأحس تلك الاحساسات الغامضة اللذيذة التى كنت احسها فى الأيام الحلوة التى سبقت زفافنا .

وانفجر مرجل غضب الزوج ، فقال وهو يبعدها عنه بكتفه :

ـ لن يكون هذا ، لن يكون هذا أبدا .

وأفاقت من حلمها ، فنظرت اليه بعيون مفتوحة وقالت :

ـ لماذا ؟

فقال والغيرة تنهش فؤاده :

ـ قلت لك انني لا أريد عرفه فى بيتى ، ولا احب أن تكونى فى مكان يكون فيه عرفه .

ـ لماذا ؟

فقال فى غيظ :

ـ لاننى اكرهه .. امقته .. ابغضه .. لا احبه .

وضاقت الدنيا فى عينيها ، وتحركت مشاعر كثيرة متباينة فى اغوارها ، فانفجرت قائلة :

ـ لماذا ؟

وأحس كأن سوطا هوى على وجهه ، فقال وصدره يعلو وينخفض :

ـ لأنه .. لأنه ..

ولم يستطع ان ينطق الكلمة التى ملأت راسه وفمه ومزقت كيانه ، فهب واقفا وراح يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، وهو يرتجف يحس كأنه سينفجر ويتطاير أشلاء ، ووجدت فردوس الفرصة مواتية لاثارته ، وارغامه على اهانتها لتجد فى ذلك تكئة لغضبها وعودتها الى اهلها ، فقالت وهى تقف فى طريقة متحدية :

ـ لأنه ماذا ؟ قل .

فقال وهو يزيحها بيده من طريقه :

ـ كفى .. اسكتى .

فقالت فى عناد :

ـ لن اسكت قبل ان اعرف ماذا يدور فى راسك .. قل لأنه ماذا ؟

فقال فى ضيق :

ـ أوه .. والله ان لم تسكتى لأذهبن اليه الآن وأكتم أنفاسه .

وكان يذرع الغرفة فى طريقه الى الباب ، فأسرعت فردوس دون تفكير الى الباب تسده بجسمها ، وقد عزمت على أن تقاوم زوجها اذا ما فكر فى مغادرة الغرفة ، ولكنه ظل غاديا رائحا وهو يقول فى حنق وهو يصرف أنيابه :

ـ سأقتله .. سأقتله يوما .

وجعلت فردوس ترصد حركاته دون أن تنبس بكلمة وقد أوجست منه خيفة .

- ٩ -

كان الوقت ضحى ، الشقة هادئة لا يسمع فيها الا وسوسة اساور ، وارتطام نحاس بنحاس بين لحظة واخرى وخرير ماء ، فقــد ذهب سويلم الى دكانه ، وأنطلق عرفه الى تأدية امتحانه ، ودخلت فردوس تغتسل ٠

كانت فردوس تستحم عقب أن تهب من نومها وقبل أن تعد طعام الافطار لزوجها ، ولكنها قرأت فى عينى زوجها ريبة ، ووخزها مرات بكلمات مغلفة بدعابة نطقت بالشك الذى يساوره ، فصارت تنتظر حتى يخرج وتولى وجهها شطر الحمام ٠

وانقضت فترة صمت طويلة ، كان الكوز فى يد فردوس ، ولكنها لم تمده لتملأه من الطشت الموضوع تحت صنبور المــاء ، فقد شردت ببصرها تفكر ، لم يبق الا يومان على سفر عرفه تعود بعدهما الى حياة الحرمان والجفاف ، ولن تعرف الحمام الا يوم الجمعة لتزيل عرق الأسبوع وتبدل ثيابها التى اتسخت ٠

وطافت بها سحابة من الأسى ، وربت سحب الحزن وتراكمت لما تذكرت أنها لن تستطيع أن تذهب الى عرفه فى قريتهم اذا هزها الشوق اليه ، فقد كانت ثورة زوجها عارمة لما طلبت منه أن تزور أهلها . انه يشك فى العلاقة التى بينها وبين عرفه ، وانه ليهم بأن يلقى بالاتهام فى وجهها ولكن كبرياءه تلجم لسانه ٠

قال لهـا مرارا أنه لا يطيق فراقهـا ، وياطالما عبر لها عن حبه ، انه صادق فى مشاعره ولكن رقة الكلام ما كانت بقادرة على اخماد أنفاس الفول الذى غذاه عرفه بشبابه فزاده ضراوة ووحشية .

وتدسست الى رأسها فكرة ، أخلت الدنيا من الرجال ولم يعد فيها الا عرفه ؟ ! اذا سافر عرفه فما أكثر الرجال الذين يتمنون أن ينالوا ما ناله عرفه ، ولم تفزعها الفكرة ، ولم تحاول وادها ، وان احسست عدم راحة ، كانت فى أعماقها تفضل أن تدوم علاقتها بالفتى وأن تقتصر عليها .

وفكرت فى سويلم واذا بالعجب يملؤها ، لماذا يغار كل هذه الغيرة لمجرد شكه بأن هناك شيئا بينها وبين عرفه ، انه لم ير شيئا أنكره ولكنه أحس احساسا غامضا عذبه ، ولكن لماذا يتعذب ؟ ان عرفه لم يسلبه شيئا ولكنه استعمل ذلك الشيء الذى لم يعد هو يقادر على استعماله . وقبل أن تستريح الى الفكرة وخزها واخز من نفسها راح يسألها أكانت تحس ما يحسه زوجها لو كانت اكبر منه سنا وهام زوجها على وجهه يلتقط لذاته ؟ واستشعرت ضيقا لما صاح فيها صائح أنها ما كانت لتغفر لزوجها ما يفعله وان كانت هى غير قادرة على تلبية رغباته .. انها طبيعة البشر .

ومدت يدها بالكوز فى عصبية تملؤه ماء وصوت يدوى فى أعماقها : « هذا ظلم .. هذا ظلم .. ما كنت لأختار هذا الطريق لو كان زوجى شابا .. ظلم .. ظلم » « ماذا يفعل سويلم لو رآنى بين احضان رجل غيره ؟ .. يقتلنى ويقتله .. سويلم يقتل ؟ ولماذا لا يقتل . اقد

قال لى : والله ان لم تسكتى لأذهبن اليه الآن وأكتم انفاسه .. آه لو خاننى زوجى مع امرأة لقتلتــــه وقتلتها ، أأستحق القتل .. أنا أستحق القتل ؟ ! هذا ظلم .. ظلم » .

ونهضت ترتدى ثيابها وهى تعجب من نفسها وتتساءل عما جعل رأسها يجيش بكل هذه الأفكار وما كانت تفكر فى شىء من ذلك ، وما كانت لتندم على ما تفعل ، وما كانت تحاسب نفسها ، أهيجت أفكارها أشباح الوحدة التى تترقبها بعد ذهاب عرفه ؟ انها لا تدرى، كل ما تدريه أنها ضائعة قلقة حائرة مضطربة .

واحست رغبة فى البكاء ، وانبثقت دمعتان فى عينيها ، ولكن لماذا تبكى ؟ ! انها تستشعر رهبة ، رهبة من شىء غامض ، انها خائفة وما كانت تعرف الخوف من قبل ، انها لتنساب من جوار زوجها فى هــدأة الليل لتذهب الى عرفه دون أن تختلج فيهــا خلجة رهبة ، فما بالها تضطرب الساعة وليس هناك ما تهابه ؟ !

وجففت رأسها بالمنشفة ، وكورت شعرها ثم لفت المنشفة حول راسها ، فبدت كالعمامة التى تلف على شاهد الضريح ، وفتحت باب الحمام وقبل أن تجتازه سمعت طرقا على الباب ، فصاحت :

ــ حاضر .

وذهبت الى الباب وفتحته فألفت أم نعيم تنظر اليها طويلا وتلتمع عيناها المضعضتان ببريق خبث ، وتنفرج شفتاها عن فم ليس فيه الا ناب واحد طويل ، ثم تقول :

ـ نعيما .. صباحية مباركة .

وقالت فردوس وهى تفسح لها طريقا :

ـ أنعم الله عليك .. تفضلى .

وتقدمت أم نعيم فى خطوات بطيئة ، كانت ترتدى جلبابا أسود فضفاضا وعلى رأسها طرحة سوداء صار لونها زيتونيا ، وظهرت سوالفها من تحت المنديل الذى تعصب به شعرها ، بيضاء ناصعة . انها فى السبعين من عمرها ومع ذلك لا تقر فى بيتها ، تنتقل من بيت الى بيت حاملة الأسرار التى تبعثرها هنا وهناك ، لذتها الوحيدة أن تسمع وأن تنقل ما تسمع ، وأن تزيد على ما تنقله ما شاء لها خيالها ، وما كانت تلتقط الا الفضائح والمصائب والمعايب .

وتلفتت وقالت فى حسد :

ـ ربنا يمتعك بشبابك .

وانفرجت شفتاها عن نابها الطويل ، وقالت :

ـ والله قلبى يحبك لأنك يتيمة مثلى وبنت حلال ، روحى الله يسترك دنيا وآخرة يا فردوس يا بنت زكية .

ووصلتا الى غرفة عرفه ودلفتا اليها ، وجلست أم نعيم على الأرض ، ومالت فردوس عليها تحاول رفعها وهى تقسم قائلة :

ـ والله قومى واجلسى على الكنبة .

ـ وحياة النبى اللى زرته أنا مرتاحه .

ـ اترفعى يا شيخه .

مرتاحه والنبى روحى الله يريحك ويسترك دنيا وآخرة .

وجلست فردوس أمام مرآة الكنســـــول ورفعت المنشفة عن راسها ، وأخذت تسرح شعرها الأسود الطويل ، وأم نعيم ترمقها فى حسرة ، تحاول أن تغريها بنظراتها ، وقالت :

ــ ايه .. ذهبت أيامنا ، كانت أيام جميلة ولو أنها كانت قصيرة ، كان المرحوم لا يترك شعرى يجف أبدا ، ما ان أخرج من الحمام حتى يعيدنى اليه مرة ثانية ، كنت أحب أن أصلى ولكن ما كان يترك لى وقتا للصلاة .

وضحكت فردوس ضحكتها المنغمة الزاخرة بالنداء وقالت :

ــ أما كان له عمل غيرك ؟

فقالت أم نعيم وهى تطوح ذراعها :

ــ كانت دكانه تحت البيت ، وكان كالمكوك صاعدا هابطا لم يكن آدميا كان وحشا .

وصمتت أم نعيم قليلا ثم قالت :

ــ الله يرحمه ويجعل أراضيه الجنة ..

فقالت فردوس وهى تضحك :

ــ اطمئنى انه من أهل الجنة .

فقالت أم نعيم وهى ترمقها فى استخفاف :

ــ وما أدراك ؟

ــ لأنه مات شهيدا .

فقالت أم نعيم فى ضيق :

ـ مات وتركني صغيرة .

ـ ولماذا لم تتزوجي بعده ؟

ـ قلت اعيش للولدين ولا اقهرهما ، حرمت نفسي وربيتهما ولما كبرا تزوجا وتركاني وحدى ، آه لو كنت أعرف ما اهدرت شبابى

فقالت لها فردوس وهى ترمقها فى المرآة :

ـ انادمة على ما فعلت ؟

فقالت أم نعيم فى حسرة وان تظاهرت بالمزاح :

ـ لو كان فى راسى عقل ما قبلت أن أعيش بلا رجل حتى تجف عروقى ..

روحى الله يمدلك فى عمر العم سويلم ويروى لك عروقك .

ومالت فردوس برأسها وضحكت ، وراحت أم نعيم تتجول فى الغرفة بعينها ، فرأت جلباب عرفه معلقا ، فالتمعت عيناها ببريق خبث وقالت :

ـ أما زال العم سويلم عرقا ؟

فقالت فردوس وهى تنهض :

ـ انه عرق ولكنه ليس وحشا كزوجك ..

وعادت أم نعيم تنظر الى جلباب عرفه وقالت :

ـ نعمة .. احمدى الله عليها ، ما جئت لزيارتك الا ووجدتك خارجة من الحمام .

وصمتت قليـــلا تغالب الكلمات التى تتراقص على لسانها ، ولم تستطع أن تكبحها ولكنها غيرت اتجاهها ، قالت :

ـ وكيف حال عرفه ؟

ونظرت فردوس اليها تتفحصها فى ريبة ، فالفتها مطرقة ، انها تعرفها داهية تريد أن تجرها الى ما تبغى لتدر بقصتها مع عرفه على بيوت الجيران ، فراحت تتحدث فى روية وتزن الكلمات قبل أن تتفوه بها قالت :

ـ بخير . وسيسافر بعد غد ليعود الى اهله .

ـ ولماذا هذه العجلة ؟

ـ وما الذى يبقيه بعد انتهاء الامتحان ؟ !

واسبلت ام نعيم عينيها ، كانت هذه عادتها كلما وخزت وخزة كانما كانت تخشى ان تكشف عيناها سريرتها ، وقالت :

ـ يساعد العم سويلم فى الدكان .

وهمت بأن تقول : انه لا يزال صغيرا ، ولكنها احست أن العجوز ستسخر من قولها ، وأنها قد تنفذ من ذلك الى السؤال عن سنه والى الحديث عن قدرته على انجاب الأولاد ، فوجدت أن الصمت اسلم ، فلم تنبس بكلمة وتحركت تنشر المنشفة .

وضايق أم نعيم ذلك الصمت ، وغاظها تهـــرب فردوس من الخوض فى هـــذا الحديث ، ورأت أن تعرج على حديث آخر فيـــه غمز ، قد يعود بها الى الحديث عن عرفه ، فقالت :

ـ العم سويلم رجل طيب وابن حلال ولكننى فى حيرة من أمره هذه الأيام . ولزمت الصمت لتثير فى فردوس رغبة كشف سر الزوج وسرها انها نجحت فى خطتها لما رأت فردوس تقبل عليها وتقول لها فى اهتمام :

ـ وماذا أنكرت من أمره ؟

فقالت أم نعيم فى صوت فيه رنة أسى متكلفة :

ـ سيره مع سرحان .

ـ سرحان من ؟

فقالت أم نعيم وقد أسبلت عينيها :

ـ ألا تعرفين سرحان ؟ انه يعيش على قتل الناس .

ـ يعيش على قتل الناس ؟

ـ نعم . من له غريم يؤجره لقتل غريمه .

ـ ومتى يقابله سويلم ؟

ـ أن سرحان كالخفاش لا يغادر بيته الا بعد أن تغيب الشمس .

ـ وأين يسكن ؟

ـ فى البيت المتهدم المجاور للفرن .

ـ أى فرن .

ـ الفرن الواقعة خلف دكان العم سويلم .

وهمت بأن تسألها عن العلاقة بين زوجها وسرحان ، ولكنها حزرت كل شيء ، قال لها سويلم انه سيقتل عرفه يوما ، وها قد جاء اليوم ، أجر مجرما ليقتله ، ولكن لماذا لا يقتلها هى ؟ ! انه أعجز من أن يفعل ذلك ، انه يحبها .. يهواها .. يريدها خالصة له .

وتفتحت نفس أم نعيم ، سرها أنها غرست فى نفس فردوس

القلق ، وزاد فى سرورها تلك الأفكار التى راحت تتجمع فى راسها حول فردوس وسويلم وعرفه ، ستجد قصة مثيرة تدور بها على بيوت الجيران ، وضاعف من غبطتها أن القصة تروى فضيحة جنسية وهى تشتهى كل حديث يقودها الى الجنس حتى تغرق فيه .

وانطلقت أم نعيم تتحدث ، وفردوس لا تفقه من حديثها شيئا ، كانت مشغولة بالتفكير فيما تفعله لتنقذ عرفه .

— ١٠ —

فاض قلق فردوس بعد أن تيقنت من ان حياة عرفه فى خطر ، لقد دفعت الغيرة الشيخ الى أن يكترى رجلا ليتخلص منه ، وراحت الأفكار تتزاحم فى رأسها ، كانت تقلب الرأى فيما تفعله لتنقذ الفتى ، فقد عزمت على ألا تقف مكتوفة اليدين .

دار بخلدها أن تجابه سويلم بأوهامها ، تقول له انه أجر سرحان ليغتال عرفه ، فلا يسعه الا أن ينهار أمام المفاجأة . سينكر ما دبر ويتملص من التهمه ويعمل على تجميد مؤامرته بعد انكشاف أمره .. ولكن ماذا يكون الموقف لو أخذته العزة وثار وحطمها فيما يحطم ؟ ! ماذا لو ألقى فى وجهها اتهاماته وطلقها وراح يوسع الأرض اذاعة بما بينها وبين الفتى ؟ ! لا . ان محاولة الوقوف فى وجه سويلم الحاقد الثائر المطعون ليست بالرأى ، ولكن ما الرأى ؟ أتترك الفتى يقتل ؟

وارتجفت وثارت دماؤها حارة فى عروقها ، وزاد خفقان قلبها ، وراح يهمس فى نفسها هامس يقول : أهون على أن أفضح من أن يقتل عرفه ، ليت الناس كلهم يعرفون ما بينى وبينه ويترك لى .

وراحت تذرع الغرفة وهى مطرقة ، وتدسست الى رأسها فكرة الذهاب الى سرحان فى وكره وتهديده بأنها على علم بما هو مقبل عليه ، وأن حبل المشنقة ينتظره لو أصيب الفتى بمكروه . ترى أيرضخ مجرم لهذا التهديد ؟ وماذا تفعل لو سخر منها وقال

لها انها لا تستطيع أن تشى به لأن معنى ذلك وقوفها أمام المحكمة واعلان فضيحتها على الملأ . ستقول له انها لن تخشى الفضيحة بعد قتل عرفه ، فلن يكون لها شىء بعده .. واذا لم يخضع لتهديدها وقتله فماذا تفعل ؟ أتشى به وما الذى ستجنيه بعد قتل عرفه !

« لا . لن يقتل عرفه ، لن أتركه للموت أبدا ، سألتمس من سويلم أن يتركه لشبابه وأقسم له اننى لن أحاول ان أعيده الى البيت او اذهب الى قريتنا ، أيقبل سويلم هذا ؟ لا . لن يقبله . انه يشك الآن وحسب ، وانه ليقدم على القتل لمجرد الشك ، وان توسلى اليه سيؤكد أوهامه .. الويل لى ماذا أفعل ؟ »

وراحت تقطع الغرفة جيئة وذهابا وفى وجهها حيرة ، وفى رأسها أفكار كثيرة ، وفى قلبها قلق وخوف ، وبدأ اليأس يتسرب الى كيانها فاستقر رأيها على أن تذهب الى سرحان فى وكره وليكن ما يكون .

وارتدت ثوبا اسود فضفاضا وأسدلت على وجهها نقابا أسود ، وانطلقت مأخوذة ، تحس كأنها تعيش فى غيبوبة ، ولولا ضربات قلبها الشديدة ، لحسبت أنها فى حلم من الأحلام .

وانسابت فى الطريق وقد وسعت من خطوها ، فالمشاعر المتفجرة فى صدرها تدفعها دفعا فى سيرها ، واللهفة على مقابلة سرحان ، ومجابهة المجهول الذى يترقبها ووضع حد للخوف الذى ينتابها تغريها على التقدم فى حماسة ، وأن تلقى بنفسها فى المعركة .

كانت غاية أمانيها أن تخرج منتصرة ، أن تنقذ عرفه دون أن تضطر الى اعلان فضيحتها على الملأ ، انها تعيش الساعة لهذه الأمنية

فاذا أخفقت فى ثنى سرحان عن عزمه ، فليس أمامها الا أن تذهب مع عرفه ، مضحية ببيتها وسمعتها ، مشاركة اياه فى الخطر الذى ينتظره . لن تتركه أبدا يلاقى الموت وحده .

ووصلت الى الفرن فتمهلت وراحت تتلفت زائغة البصر ، وثبتت عيناها على البيت المتهدم بجوار الفرن ، فكاد قلبها ينخلع من بين ضلوعها ، وتسمرت فى مكانها برهة ، وطافت بها رغبة فى أن تولى الأدبار ، ولكنها وأدت ضعفها ، وتقدمت من صبى صغير وقالت له وهى تشير الى البيت المتهدم :

ــ أهذا بيت سرحان ؟

فقال الصبى وهو يتفرس فيها فى دهش :

ــ نعم .

ــ وأين يسكن ؟

ــ فى أول غرفة على اليمين .

ــ أهو موجود الآن ؟

ــ نعم .

ــ وحده ؟

ــ أظن ذلك .

ولمت أطراف شجاعتها ومشت صوب البيت المتهدم ، والصبى يرمقها فى استغراب ، وهبطت فى درجتين ، وسارت فى دهليز رطب مظلم ، انبعثت منه روائح روث البهائم ، وبلغت أول غرفة على اليمين ، فوقفت قليلا حتى تعتاد عيناها على الظلام ، وحتى تلتقط انفاسها .

وطرقت باب الغرفة فى اضطراب ، ومرت لحظات كلها قلق ، واخيرا فتح الباب ، واذا برجل طويل ، عريض الكتفين ، عــــارى الصدر ، غزير الشارب يملأ فراغ الباب ويتطلع اليها فى استغراب ، فسرت فى بدنها رعدة ، ولكن سرعان ما قبضت على مشاعرها بيد من حديد .

وظل سرحان ينظر اليها مليا يحاول أن يخترق ببصره ذلك النقاب المنسدل على وجهها ، ثم قال وهو يفسح لها طريقا :

ــ تفضلى .

وتقدمت خافقة القلب ، ودارت بعينها فى المكان فلم تجــد الا فراشا قذرا كوم على الأرض ومقعدين من مقاعد المقاهى الخشبية الطويلة العالية ، وذبالة علقت فى مسمار دق فى الحائط .

وأغلق الرجل الباب ، وتقدم وهو يمسح شفتيه بأصبعه كأنما يمسح لعابا سال ، وأشار الى المقعد الخشبى السليم وقال :

ــ تفضلى .

وبقيت واقفة منتصبة ، وقالت :

ــ أنت سرحان ؟

فقال فى زهو :

ــ نعم . فى خدمتك .

فقالت فى انفعال :

ــ جئت أحذرك من تنفيذ ما اتفق عليه معك سويلم .

فقال لها فى انكار :

ــ من أنت ؟

ــ هذا لا يهمك .

ــ وما الذى أدراك بما بينى وبين سويلم .

فقالت وقد اتسعت عيناها ، وراح صدرها يعلو وينخفض :

ــ ان أصيب الفتى بمكروه ستقتل .

فضحك فى استخفاف وقال :

ــ لم يخلق بعد الذى يقتلنى .

ومسكت خصلة من شعرها وقالت :

ــ أقسم بهذا انك ستقتل اذا قتل عرفه .

فقال فى انفعال :

ــ من ذا الذى يقتلنى .. أنت ؟ ! عشت حتى رايت امرأة تتوعدنى !

وأحست أنها بدأت تملك ناصية المعركة ، فقالت فى ثقة :

ــ اذا كان سويلم قد دفعك الى هذا بماله ، فأنا أستطيع ان أغرى رجالا على قتلك بنفسى ، ما اكثر الذين يتطوعون لقتلك لقاء ليلة معى ، وصمت كأنما ألقم حجرا ، وراح ذهنه يعمل فى سرعة ، فأحس طلائع هزيمته ، ورأى أن يستغل الظرف ليقلب اندحاره نصرا ، فدنا منها وقال وهو يبتسم فى خبث :

ــ أنا على استعداد ان أقبض الثمن الآن ، وأن انقض اتفاقى مع سويلم .

ومد يده ليجذبها اليه ويضمها الى صدره ، ولكنها دفعته فى قوة ، فقال فى حنق :

ـ أترفضين ؟

ـ نعم .

ـ لماذا ؟ مادمت على استعداد لدفع الثمن ، فما الفرق بين ان تدفعيه لى أو تدفعيه لغيرى .

ـ لأننى لا أثق فيك .

ـ أقسم لك اننى سانفذ اتفاقنا .

وعاد اليها مرة أخرى ليضمها اليه فدفعته فى شدة وهى تقول :

ـ حذار أن تدنو منى .

فقال فى غضب :

ـ اذن سيقتل ، ولن احرم رجلا من أن يقضى ليلة معك .

فقالت وهى تتجه الى الباب وتفتحه :

ـ لن تقدر .. لن تستطيع .

وخرجت وهى تعجب من نفسها .

- ١١ -

استيقظ عرفه فى البكرة ، وارتدى ثيابه وجعل يغدو ويروح فى الغرفة يتعجل الزمن ، ويرنـــو الى حقيبته الصفراء والصرة الموضوعة على الكنسول فيمتلىء نشوة ، فلن ينقضى اليوم حتى يكون بين أمه وأبيه وأخوته .

وجلس على حافة فراشه ، وشرد ذهنه فرأى نفسه بعين خياله يقدم لأمه قطعة القماش السوداء التى اشتراها لها ، فيفيض وجهها بشرا ، ويعطى لأخوته الذين التفوا حـــوله اللعب الريفية البسيطة المتواضعة التى خططت بالأحمر والأبيض ، فيتعـــالى صياحهم فرحا ، ويهدى لأبيه سبحة سوداء فيدعو له بالهداية . وسرت الحماسة فى صدره ، فنهض وعاد يذرع الغرفة جيئة وذهابا .

وجاءت فردوس تدعوه لتناول الطعام ، فألفته قد ارتدى ثيابه وتأهب للسفر ، فانقبضت . ســـاءها لهفته على الذهاب ، انه لا يريدها ، لا يحس بها ، يتعجل اللحظات لينطلق ، انه سينساها ، لن يذكرها بينما هو فى خيالها لا يريم ، وقالت فى مرارة :

ــ لماذا هذه العجلة ؟ الساعة الآن السابعة ولن يتحرك القطار قبل العاشرة .

ــ أحس شوقا طاغيا الى أهلى ، ليتنى أذهب الآن .

واستولت عليه فكرة الخروج فاتجه الى حقيبته يحملها ، فقالت له :

ـ ماذا تفعل ؟

ـ انى ذاهب الى المحطة .

ـ لا زال أمامك ثلاث ساعات ، أتقف ثلاث ســــاعات تنتظر القطار ؟ !

فقال وهو يبتسم :

ـ لن أضجر أو أتململ ، سأكون راضيا ما دامت رحلتى قد بدأت .

فقالت وهى تملأ عينيها منه :

ـ تعال افطر ، ثم افعل ما تريد .

وسار عرفه الى حيث وضعت الطبلية ، وسارت فردوس خلفه وهى منقبضة ، يملأ جوفها قلق وخوف وحزن وانكسار ، ووقعت عينا عرفه على سويلم الجالس الى الطبلية فحياه وجلس ، وجلست فردوس وهى مشغولة بالأفكار التى أخذت تتدفق الى رأسها ، والمشاعر التى راحت تزحف من هنا وهناك ويضيق بها صدرها .

فكرت فى ذهاب عرفه الآن فحبذته ، فذلك يضيع على سرحان فرصته ، اذا كان ما انفك مصرا على أن يصرع الفتى ، انه سيتربص له قبل موعد القطار بقليل ، فاذا ما انطلق الساعة ، سيفلت من قبضته ، وقررت أن تغرى عرفه بالذهاب ، فقالت لزوجها :

ـ عرفه يريد أن يذهب الآن .

فقال سويلم دون أن يرفع رأسه :

ـ لا . قلت لعليوة أن يجهز « الكرتة » ، ليوصله الى المحطة .

فقال عرفه :

ـ متشكر يا عمى ، ولكننى أفضل الذهاب الآن على قدمى

فقال سويلم وهو يجاهد أن يبدو هادئا :

ـ الجر شديد اليوم .

فقالت فردوس وهى تنظر فى قلق :

ـ ما زلنا فى أول النهار .

فقال سويلم وهو يمد يده الى الطعام :

ـ لا أحب أن يصاب بضربة شمس فى اليوم الذى سيعود فيه الى أهله .

وهمس فى نفس فردوس هامس يقول : ولكنك تحب أن يصاب بطلق نار ، وألا يعود الى أهله .

وساد الصمت وشغل كل منهم بأفكاره عن كل ما حوله ، كانت فردوس تفكر فيما تفعله لو عاد عليوه وقال أن عرفه قد قتل . أتتهم زوجها بقتله ؟ وماذا ستجنى من هذا الاتهام ؟ ستخسر عرفه والزوج معا ، واذا أقفلت فمها ولزمت الصمت كيف تعيش مع رجل تعرف أنه قاتل ، وقاتل من ؟ عرفه .

ووسوس فى جوفها صوت يقول : وهو كيف يعيش معى فى بيت واحد وقد لوثت شرفه ؟

وهب صوت آخر يصيح فيها : لا . انه يشك وحسب ، انه ليس على يقين ، فلو أنه رأى شيئا لما بقى معى لحظة ، أما أنا فاننى واثقة من أنه هو المحرض على قتل الفتى .

وخطـرت لها فكرة أن تنهض وترتدى ثيابها وتنطلق مع الفتى الى المحطة تحميـه ، ولكنها فطنت الى أن سويلم لن يوافـق على

ذهابها ، سيسفه رغبتها ويرفضها رفضا ، وظلت فريسة للأفكار المتباينة الزاحفة الى رأسها دون انقطاع .

وشرد سويلم بخياله ، وتمنى لو أن عرفه سافر ليلا لكان قتله ايسر ، ولكنه أخذ يطمئن نفسه أن سرحان لا يأبه بليل أو نهار ، انه ماكر ، يقتل فى الظهيرة ويروغ كالثعلب .

واختلس نظره الى الفتى الذى حكم عليه بالاعدام ، فاذا بغضبه يتحرك ، ودماؤه تثور ، ومقته يسرى فى عروقه كالصديد ، وتعفنت روح الشيخ ، فلم تنبت فيها خردلة من شفقة .

وظل عرفة متهلل الأسارير ، انه يرى أمه وهى تضمه الى صدرها الحنون ، وأباه يربت على ظهره ، واخوته يلتفون حوله يصغون اليه وهو يسرد عليهم حياة البندر . ويرى الطرق الضيقة الحبيبة الى نفسه ، والحقل والساقية ورفقاء صباه وحمرة الشفق ساعة الغروب .

كانت نفسه مسرحا لحنين رقراق طاهر ،وحنان ملائكى لايدنسه رغبة جامحة ، ولا لهفة على فتاة من فتيات القرية اللاتى كن يشاركنه لعبته المفضلة ، فقد كان غارقا فى الجسد ، يهفو الى غذاء روحى بعد ان نضبت ذخيرته من احاسيس الحب العفيف .

وانتهوا من افكارهم وعاد عرفه الى غرفته ينظر الى حقيبته وصرة الثياب فى شغف ، تراوده فكرة أن يحملهما وينطلق ولكنه كان يعتصم بالصبر حتى لايغضب الشيخ فى آخر يوم له فى بيته .

وراح الوقت يمر وئيدا وئيدا ، وكل من عرفه والشيخ وفردوس يتعجل مروره ليقضى على التوتر الذى يعيش فيه ، وأخيرا ارتفع

رنين جرس « الكرته » . فتفتحت نفس عرفه فرحا ، وانقبض صدر الشيخ ، وانخلع فؤاد فردوس هلعا ، وكاد يفلت منها زمام أمرها وتنـد منها صرخة .

وأسرعت فردوس الى غرفة الفتى تودعه ، وقلبها يرفرف بين ضلوعها كجناح حمامة ، وقابلته وهو مقبل وقد حمل حقيبته وصرته ، فاستشعرت رغبة مستبدة تغريها بضمه وتقبيله ، ولكنها قاومت تلك الرغبة وقالت فى صوت متهدج تخنقه العبرات .

ــ مع السلامه .

وأفسحت له الطريق ووقفت ترنو اليه من خلال دموعها التى انبثقت تملأ مآقيها ، ولم تعد ترى شيئا ، فمسحت عبراتها بظهر يدها ، ورأته وهو يتجه الى باب الشقة ، فأسرعت اليه وهمست :

ــ ألا تودع العم سويلم ؟ .

ووضع الحقيبة على الأرض ، وانطلق الى غرفة الشيخ ، وقال وهو يمد له يده مصافحا :

ــ عن اذنك يا عمى . ألقاك على خير .

وصافح الشيخ الفتى فى فتور ، وهم بأن يقول له : « مع السلامة » ، ولكن حرارة مقتـه صهـرت الكلمات فتبخرت على شفتيه ، ولم يفطن عرفه الى وداع الشيخ الفاتر ، ولم يأبه به ، وعاد مسرعا ليحمل حقيبته .

ومر بفردوس وهو يكاد لا يحس بها ، وحمل حقيبته وسار واذا بفردوس تسرع وتفتح له الباب وما أن يخرج منـه حتى تتبعـه وتجذب الباب خلفها وتخف اليه وتقبله قبلة خاطفة ، وتقول :

ــ مع السلامة .

وطفــق عرفه يهبط فى السلم خفيفا ،يحس احساس السجين الذى يغادر سجنه لأول مرة ، ووقفت فردوس عند رأس السلم تنظر اليه وفى قلبها لوعة وفى نفسها حسرة وفى عينيها دموع ، ولم تستطع أن تكبح جماح عواطفها فراحت تنشج بصوت مسموع .

ووضع عرفه حقيبته وصرته فى « الكرته » وقفز الى جوار عليوه خفيفا ، وملأ رئتيه بالهواء ثم زفره فى راحة ، وقال ليطمئن نفسه :

ــ الى المحطة .

وانسابت « الكرته » صوب المجهول .

وعادت فردوس الى حيث كان سويلم ، كان القلق باديا عليها ، تطرق ثم ترفع رأسها وتتلفت وتأخذ فى التململ ، ولا تلبث أن تنهض وتغدو وتروح فى الحجرة دون أن تفعل شيئا ثم تعود لتجلس وتطرق وتتلفت ، ولولا انشغال الشيخ بالأفكار الطاغية التى تتدسس الى رأسه ، والمشاعر القاسية المزمجرة فى ذاته لفطن الى اضطرابها .

ولم تطق المكث فى الغرفة فقامت وانطلقت الى غرفــة لهــا شباك على الطريق وراحت تنظر من خلالها شاردة ، وقد نبتت فى رأسها هواجس كثيرة ، راحت تتساءل عمــا تفعله اذا عاد عليوه وصاح ان عرفة قد قتل ، أتجرى فى الشارع محلولة الشعر تصيح كالمجنونة ؟ أترتدى عليه ثياب الحداد ؟ أتقول لزوجها انها تعلم أنه هو المحرض على قتله ؟ أتنتقم لعرفه وتقتل سويلم ؟ اتنفذ وعيدها لسرحان ؟ لقد أقسمت بخصلة من شعرها أن سرحان سيقتل اذا

أصيب الفتى بمكروه ، فأين ذلك الرجل الذى يقدم على قتل سرحان لقاء ليلة معها ؟ ! .

وأحست أن سرحان سيسخر من تهديدها ، فتقاصرت نفسها، وأحست رهبة تكاد تكتم أنفاسها ، ولكن أيقدم سرحان على القتل بعد ان تيقن أننى اعرف نواياه ؟ الا يخشى أن يدفعنى اليأس الى البوح بكل شيء ؟ آه لو ركب سرحان رأسه وركبت رأسى ! .

وأحست حركة خلفها فالتفتت فرأت سويلم قد أقبل شاردا ، وذهب الى الشباك والقى نظرة فاحصة على الطريق ، فقد جاء يتنسم الأخبار مثلها ، وكلاهما كانت آماله معلقة بعودة عليوه ، وان تباينت الآمال كل التباين وتنافرت الرغبات .

وساد بينهما صمت قاتل ، حتى كان كل منهما يخشى أن يسمع الآخر دقات قلبه ، وصوت انفاسه ، ويقرأ ما فى نفسه من مشاعر وأفكار ، وراح الزمن يسير سير السلحفاة ، فيزيد من الآلام الجاثمة على صدريهما ، ويوسع فى هوة الهلع التى حفرت فى أعماقهما .

وارتفع رنين جرس « الكارته » فذهبت نفساهما شعاعا واتسعت عيونهما رعبا ، وانبهرت أنفاسهما ، وأحس كل منهما أنه يكاد أن ينهار .

ووصلت الكارته الى البيت ، ولم سويلم اطراف شجاعته ،وأطل من الشباك ، وهو يحمل نفسه على ذراعيه حملا وقال فى صوت أجش مضطرب :

ــ هيه ياعليوه .

ورفع عليوه راسه وصاح فى صوت هادىء :

ـ وصلته بالسلامه :

وتبخرت مخاوف فردوس ، وزحف الاطمئنان فى جوفها ، ثم راحت فرحة تعربد فى أعماقها ، ولم تقو على كبت مشاعرها ، فذهبت الى زوجها تضمه وتقبله .

وأبعدها سويلم عنه فى عنف ووقفت فردوس ترقبه وعلى شفتيها بسمة ، أساريرها منبسطة ، فقد سرها نجاة عرفة وانتصارها على سرحان ، وتدفقت الدماء حارة فى عروق الزوج ، وعصفت به ثورته فاذا به يمد يده الى كرسى قريب ويرفعه ثم يهوى به على راس فردوس وترنحت وسقطت على الأرض ، والكرسى يرتفع فى الهواء ليهوى عليها ، واستمر يضرب ويضرب ويضرب حتى صارت جثة هامدة ، وهو مستمر فى ضربها دون أن يحس مما يفعل شيئا .

حدث ذات ليلة

ــ الو .. اليونسكو .. أرجو محادثة الآنسة سميحه من فضلك .

ورفع سماعة التليفون عن أذنه ، وراح يتلفت فى المكان ، كانت هذه أول مرة يغادر فيها مصر ، فكان يحس احساس البهجة الذى يحسه الطفل اذا ما تفتحت عيناه على شىء جديد ، ولمح سيدة أجنبية ترتدى ثوبا أبيض ، نحيلة الخصر جدا ، ممتلئة الأرداف منطلقة فى ردهة الفندق كغزال يتيه فى دلال ، فجعل يتبعها بعينيه الجائعتين ولولا أنه ينتظر محادثة الآنسة سميحه ، لتبع الجمال واقتفى أثره ، فهو يستشعر لذة بتقليب وجهه فى الأجساد المتناسقة الزاخرة بالأنوثة الصارخة بالجاذبية .

وعاود وضع سماعة التليفون على أذنه ، وملأ خياشيمه عبير نفاذ وبغريزته اكتشف اقبال أنثى فالتفت ، ووقعت عيناه على ظهر عار حتى الخصر ، وأرداف بلا بروز وساقين نحيلتين ، فغض من بصره فى اشمئزاز وهمس فى جوفه شيطانه : « انها لوح عجين » .

وجاء صوت انثوى يسرى فى أسلاك التليفون يقول :

ــ الو .. انا سميحه .. من المتحدث ؟ .

فأرهفت حواسه وقال فى اهتمام :

ـ انا همام حمدى ، صديق فكرى ؛ جئت الآن فقط من القاهرة ، وقد حملنى تحياته وهدية ، انها معى هنا فى فندق الودان .

ـ حمدالله على السلامه ، وكيف حال فكرى ؟ .

ـ بخير ، و .. ويتعجل عودتك .

وضحكت سميحة ضحكة ناعمة وقالت :

هانت .. كلها ثمانية اشهر .. متى استطيع ان اراك ؟ .

فى اى وقت وفى اى مكان .

سامر عليك فى الفندق فى الساعة الخامسة ظهرا ، أيوافقك هذا الميعاد ؟ .

اى وقت يوافقنى ، فلا عمل عندى اليوم ولست مرتبطا بمواعيد .

ـ شكرا والى اللقاء .

ـ مع السلامة .

ووضع سماعة التليفون وعاد الى غرفته وهو يفكر فى سميحه ، انه لم يرها من قبل ، كل ما يعرفه عنها ان صديقه فكرى خطبها يوم عادت الى مصر تقضى اجازتها وأنهما اتفقا على الزواج بعد انتهاء عقد عملها فى ليبيا .

واقترب موعد حضورها فقام وارتدى ثيابه ثم خرج ينتظرها فى غرفة الاستقبال ، ومرت به أكثر من سيدة ، وكان يتفرس فى كل قادمة . كانت كلهن أجنبيات ، وما كان يستطيع أن يفرق بين الايطالية والألمانية والأمريكية .

ووسوس فى نفسه هامس يسأله عما يفعل اذا اقبلت سيدة وظنها هى فقام اليها يستقبلها ثم اتضح انها ليست هى ، فانكمش ومشى فى جوفه خوف ، وفكر حتى اهتدى الى أن خير ما يفعله ان يذهب الى مكتب الاستقبال فى الفندق ويقول للواقف هناك الذى لا يعرف من اللغة العربية حرفا انه فى غرفته ويسأله ان يرسل فى طلبه اذا ما سأل عنه احد .

وحبس نفسه فى غرفته ، وارتمى فى الكرسى الوحيد الموجود وراح يعبث بأصابعه فى الشريط الحريرى الذى لف حول الصندوق الذى حمله بين يديه فى حرص من القاهرة الى طرابلس وهو يفكر كيف يتصرف اذا ما جاء اليه من يخبره أنها قد أقبلت ، أيذهب اليها يحييها ثم يستأذن منها فى العودة الى غرفته لاحضار الهدية ، أم يحمل الهدية معه ويقدمها اليها عقب مصافحتها والترحيب بها ؟ وظل حائرا مدة يناقش الفكرتين ويوازن بينهما ، ان من الأليق أن يقابلها ويحدثها عن فكرى ثم يقوم ويحضر الهدية ، ولكن بأى حق يبيح لنفسه أن يجلس اليها ويتسامر معها ؟ ان كل ما هو مطلوب منه أن يقوم مقام ساعى البريد ، يترك الرسالة ثم ينصرف مشكورا . وقبل أن يستقر على رأى سمع طرقا خفيفا على الباب ، فنهض وذهب فالفى خادما امامه يقول له :

ــ الآنسة سميحه تنتظركم فى الصالون .

فقال فى انفعال :

ــ قادم حالا .

وعاد الى حيث كان الصندوق وحمله فى حرص ثم انطلق مسرعا.

ووقف عند باب الصالون ونظر فوقعت عيناه على شابة بيضاء قد عقصت شعرها الذهبى على شكل تاج يميل فى دلال الى اليمين عند منبته فرق فى الشعر الحرير ، يزين وجهها عينـان واسـعتان زرقاوان يجذبان اليهما الأنظار ويحركان فى النفـوس احساسـات الرضا والاشراق ، ولمحته ورأت الصندوق الذى يتـأبطه فنهضت لاستقباله وقد رفت على شفتيها بسمة ترحيب ، كانت متوسطة الطول ، بديعة التكوين ، لو رآها فى الطريق لما خطر له على بال أنها مصرية ولظنها من ممثلات السينما الأمريكيات .

وقالت وهى تخطو نحوه بضع خطوات :

مرحبا بك فى طرابلس .

ومدت يدها اليه فصافحها فى ارتباك ، وهو يقول فى اضطراب :

ـ أهلا وسهلا .. كيف حالك ؟ .

وعادت الى مقعدها وجلست وجلس فى مقعد قريب منها ،وظل صامتا برهة ، بهره جمالها وقالت لتذيب الثلج الذى بدأ الحـرج يبلوره حول الصمت الذى ساد بينهما :

ـ أهذه أول مرة تزور طرابلس ؟ .

فقال وهو يبتسم :

ـ بل أول مرة أغادر فيها القاهرة .

ـ طرابلس مدينة جميلة على الرغم من هدوئها .. ستعجبك .

ـ الشوارع التى مررت بها وأنا فى طريقى من المطار الى الفندق ادهشتنى . لم أكن أظن أننى سأجد فى طرابلس مثل هذه الشوارع .

ـ سأجوس خلالها غدا .

فقالت وهى تخرج علبة السجائر من حقيبة يدها :

ــ غدا أجازة عندى ، فما رأيك فى أن أصاحبك لأريك معالم المدينة ، وحتى لا تغبن اذا ما فكرت فى شراء شىء .

وقدمت اليه علبة السجائر فأخذ سيجارة ووضعت سيجارة بين شفتيها وأسرع باخراج قداحته ومال نحوها يشعل سيجارتها وهو غارق فى النشوة ، وقال :

ــ شكرا . لا أريد أن أتعبك .

ــ لا تعب اطلاقا ، سيارتى معى وأنا فى خدمتك .

ووضعت ساقا على ساق ، وألفى عينيه تتجولان فى ساقيها العاجيتين وتستقران على قدمها الصغيرة وحذائها الأبيض الأنيق وضايقه أنه يتفرس فى جمالها فرفع بصره اليها وقال :

ــ أنا عاجز عن شكرك .

وقدم اليها الصندوق وقال :

ــ تفضلى .

وتناولت منه الصندوق وهى تتفرس فى وجهه ، انه شاب أسمر البشرة ، فى عينيه حيوية ، ولما يتجاوز بعد السابعة والعشرين ، وقالت :

ــ شكرا لك ، أتعبناك ؟ .

فقال فى حماسة :

ــ أبدا

ووضعت الصندوق فوق ركبتها ، والتقت عيناه بعينيها

الواسعتين فاضطرب واراد ان يقضى على ذلك الانفعـــال الذى بدا يحس انعكاسه على وجهه ، فقال وهو يبتسم :

ــ فى الصندوق حلاوة مولد النبى .. كل سنة وانت طيبة .

وتوجت شفتيها بسمة عذبة وقالت :

ــ وانت طيب .

واعتدلت فى جلستها استعدادا للقيام ، وكأنما اراد ان يظـــل حبل الحديث موصولا بينهما ، فقال :

ــ والله لم افتحه ، قال لى فكرى وهو يدفع بالصنـــدوق لى : « حذار ان يسقط الصندوق منك او أن تضع فوقه شيئا ، أن تكسر رقبتك اهون عندى من أن تكسر عروسة المولد » .

وضحك واحس انها تتفرس فيه بعينيها اللتين تشـــعان كهرباء فسرعان ما تقاصرت نفســه ، واحس فى اعماقه انه قال كلاما تافها وقد يكون سخيفا ، لماذا قاله ؟ ليته يتخلص من ذلك العيب المتاصــل فيه ، انه يتحمس للكلام قبل ان ينطق به ، حتى اذا ما خرج من بين شفتيه شعر بتفاهته ، وجعل يتلفت من الخجل .

وهبت واقفة وهى تقول :

ــ متى تحب أن أمر عليك غدا ؟ .

ــ فى اى وقت .

ــ اتناسبك الساعة الخامسة .

ــ هذا لطف منك ، سأنتظرك غدا فى الساعة الخامســة .

وسارت وسار الى جوارها وقد تأخر عنها خطوة وفطن الى انها تحمل الصندوق ، فمد يده وأخذه منهــا وهو يعتــذر ويتأسف . وانطلقا حتى بلغا السيــارة ففتحت بابها وانحنت لتدخل فانحسر ثوبها عن الساق كلها فأسرعت عيناه اليها وجاهد ليغضهما ولكن النشوة المعربدة فى وجدانه بددت تلك الرغبة المتهالكة .

ومد اليها يده بالصندوق من الشباك القريب منه ، ونظر الى عينيها فاستشعر كأنما قد غرق فيهما ، وتناولت منــه الصندوق ووضعته الى جوارها وقالت :

ــ شكرا .

فقال وهو حالم :

ــ مع السلامة .

وانطلقت السيارة وهو يرقبها حتى اختفت عن عينيه ،فدار على عقبيه وعاد الى غرفته وهو سعيد ، وارتمى على السرير بملابســه وهو يغمغم :

ــ هنيئا لك يا فكري .

وراحت مشاهد المقابلة تتتابع فى مخيلته ، وغمغم فجأة :

ــ وهنيئا لى .

وراح يحاسب نفسه على الدافع له على تلك الغمغمة ، فاقنع ذاته بأن ما من انسان الا ويرتاح الى الجمال ، وانها لسعادة أن تصغى الى جميلة أو تتحدث اليها وأنت نقى السريرة ، ستصبح زوجــة

صديقه الحميم ، وستنشرح روحه كلما سهر معهما أو التقى بهما، وما أكثر الأوقات التى سيمضيها معهما ، فهو وفكرى قلما يفترقان. وانقضت الساعات وهو يستشعر رضا ، ومرت الليلة وهو هائم فى رؤى عذاب ، تتخايل له سميحه وتمتزج بأسعد لحظات حياته وعجب لذلك الخيال الذى يصهر الأوهام فى الحقيقة ويخرج منهما واقعا جديدا .

ووافت الساعة الرابعة ، ولم يبق على حضورها الا ساعة ، فراح يرتدى ثيابه ويتأنق ويبالغ فى تأنقه ، وهمس فى اغواره هامس : لماذا يرتدى ثيابه من الآن وأمامه ساعة طويلة ؟ فأنبرى ذلك الصوت الذى يدافع دواما عن كل تصرفاته ويبررها يعلو على الهمس ويقول انها كانت كريمة فى عرضها فليس من الذوق أن ندعها تنتظر . وعاد الهمس يوصوص : ألا تتلهف على حضورها ؟ وارتفع صوت الدفاع يقول : اننى دائما أتلهف على حضور أى صديق ، لهفتى على حضورها لا تختلف عن لهفتى على حضور فكرى عندما يواعدنى . وعاد الهمس يهمز : ولماذا كل هذا التأنق ؟ قميص جديد وكرفاته جديدة والبدلة أوصيت أكثر من مرة على ضرورة كيها واعادتها قبل الرابعة ؟ ألا يدل كل هذا على أنك تهتم بها أكثر مما ينبغى ؟ انها خطيبة فكرى .

وارتفع الصوت المدافع مزمجر أبان هذه الاتهامات لا تليق ، فما من امرىء الا ويبذل كل ما فى طوقه ليكون مقبولا ، أتتزين المرأة وقد تبالغ فى زينتها قبل خروجها لأنها فى قرارة نفسها تحس أن هذه

الزينة تجعل الرجال تشتهيها وانها تحب ان تكون مشتهاة ؟ ابدا . انها تتأنق لأنها لا تحب أن تكون قذى فى عيون الناس .

وارتدى جاكتته وخرج ليفر بنفسه من نفسه التى يحلو لهـا دواما أن تضطهده وأن تحاسبه فى قسوة على كل بادرة تشتم منها رائحة دافع يشوب طهارته ظل من شك أو ريبة .

وظل فى الردهة غاديا ورائحا ، وخرج أكثر من مرة من باب الفندق ينظر وان كانت الساعة لم توافِ بعد الخامسة . كان تواقا لحضورها يتمنى لو أنها تأتى قبل الميعاد . وعاد الى غرفة الاستقبال وجلس أمام التليفزيون ، كان المذيع يقرأ النشرة الجوية ، وهو جالس الى المكتب وأمامه صحيفة ينظر فيها ، وتسرب الملل سريعا الى نفس همام ، فقام يعاود ذرع الردهة فى غدو ورواح والخـروج الى باب الفندق يترصد الطريق .

ولمح سيارتها الفولكس فاجن قادمة من بعيد ، فخف مسرعا الى غرفة الاستقبال خافق القلب وجلس فى كرسى واسع وتظاهر بأنه ينتظر فى هـدوء ، وأن كانت مشاعره كلها بدأت فى النبض وزاد خفقانها وراح فى سبات ذلك الهمس الذى اعتاد أن يهمزه ويعـذبه كلما تحرك فيه شعور يشوبه ظل من شك أو ريبة ، ونام نوما عميقا .

وأحس دنوها وملأ عبيرها أنفه فسرت فى بدنه رعدة خفية ، ومس صوتها أذنيه قالت :

ـ السلام عليكم .

وهب واقفا وهو يقول :

ـ وعليكم السلام .

وصافحها وقد انجذب بكل حواسه الى عينيها ، ولم يستطع أن يطيل النظر فيهما فراح يصعد الطرف فيها ويخفضه ، لم يكن وحده الذى تأنق استعدادا لهذه المقابلة فقد بدت فى أروع زينة ، وحسد نفسه فى أعماقه أنه سيكون الى جوارها ساعات يحادثها ويصغى اليها .

واشار الى مقعد امامه وقال :

ـ تفضلى .

فقالت وهى تبتسم :

ـ من الأفضل أن نذهب الآن قبل أن تغلق السوق .

وتحركت خارجة وهو فى أثرها يتفحص مفاتنها حتى اذا ما بلغا السيارة أسرع يفتح لها بابها وقد انحنى انحناءة خفيفة ، ومالت لتدخل واذا بعينيه تسرعان بالنظر الى ساقيها .

وأغلق الباب خلفها فى رفق ثم دار واندس الى جوارها وهو سعيد . وانسابت السيارة فى طريق الكورنيش حتى اذا بلغت تمثالا صغيرا من البرنز يمثل فتاة عارية ، ناهدة الصدر وخلفها غزال فى وسط نافورة ، أطال النظر الى التمثال ثم قال :

ـ تمثال جميل ، لا أدرى أيهما الغزال .

فقالت سميحه دون أن تنظر :

ـ لا يطلق هنا على هذا الذى تراه اسم « الغزال » ، بل يقال له « الودان » والفرق بين الغزال والودان أن الودان له عدة قرون .

فقال وهو يبتسم :

ــ الآن فهمت لماذا أطلق الودان على الفندق الذى أنزل فيه .

وصمت ليتلذذ بالاحساسات الجميلة التى تدغدغ كل حواسه، وغمرته النشوة حتى انه لم يستطع ان يستقر فى مقعده دون حركة، فراح ينظر الى البحر ويهتف :

ــ رائع .

كان البحر هادئا ساكنا والشمس تميل نحو الغروب ، والمنظر عادى مألوف لا ينتزع الاعجاب ولكن كانت الروعة تنبعث من نفسه .

وقالت سميحه :

ــ سندع السيارة فى شارع الاستقلال ثم ندور فى السوق على اقدامنا ، شارع الاستقلال وشارع عمر المختار وشارع ٢٤ ديسمبر هى إهم الشوارع التجارية فى طرابلس وهى فى منطقةواحدة، تنبع من ميدان الشهداء .

فقال وهو ينظر اليها :

ــ جميل .

ووقفت السيارة فى شارع جانبى وهبطا منها ، وسارا جنبا الى جنب وهو مفعم بالنشوة ، والتفتت اليه وقالت :

ــ خاطب ؟ .

فقال وهو يتنهد :

ــ ياليت .

ـ لو كنت خاطبا لعاونتك على شراء أشياء جميلة تسر خطيبتك.
هنا روائح فاخرة وملابس داخلية جميلة ، ولكن لا بأس سأعاونك على انتقاء هدايا صديقتك .

فقال وهو يدنو منها ويلمس كتفه كتفها :

ـ ليس لى صديقة .

ونظرت فى عينيه وقالت :

ـ لا أصدق أن شابا فى مثل سنك ليست له صديقة ؟ أتخجل منى ؟ .

ـ لو كانت لى صديقة ما أنكرت .

واتجها الى واجهة أحد المحال ووقفا ينظـران ، كانت أغلب المعروضات من ايطاليا وأطال النظر الى قميص أبيض مخطط بخطوط زرقاء رفيعة ثم التفت اليها وقال :

ـ ما رأيك فى هذا القميص ؟ .

ـ اذا كنت ترغب فى شراء قمصان فصـاحب أشـهر محـل للقمصان فى طرابلس صديقى .. تعال .

ورنت كلمة « صديقى » فى أذنه رنة غريبة ، وعكرت صفـاءه ولكن سرعان ما تبخرت سحابة الكدر التى غامت بها نفسه وعاد الى بهجته وانشراحه وانطلقا الى دكان فاخر ، ولما رأى صاحبها سميحه هش لها ورحب بها وسألته أحسن ما عنده من قمصان ، وقال همام:

ـ وكرفتات .

وانتقت له بعض قمصان وكرفتات ، وأعجبه ذوقها فقال لها :

ـ رائع .

فقالت وهى تبتسم :

ـ عندى خبرة فى أذواق الرجال :

وهمس فى جوفه سؤال « من أين أتتها هذه الخبرة يا ترى ؟ »

ولكن ما أسرع أن غمرته أمواج غبطته ، وقالت له :

ـ أتريد أقمشة صوفية ؟ هنا أقمشة انجليزية جيدة .

فقال لها وقد أشرقت ملامحه بمشاعر نبيلة :

ـ أريد أن اشترى شالاً أسود من الصوف لأمى .

وصمت قليلا ثم قال :

ـ انها كل ما لى فى هذا الوجود .

وخرجا يجوسان خلال السوق ، وقالت له :

ـ أمن أجل أمك لم تتزوج ؟ .

ـ نعم .

ـ كنت اوافقك على تكريس حياتك لها لو كنت قد اتخذت لك صديقة ، أما أن تعيش راهبا فهذا شيء شديد الوطأة .

فقال فى حماسة :

ـ لو وثقت من أن التى سأتزوجها سترعى أمى وتعمل على اسعادها ما ترددت لحظة فى الزواج .

ـ أعلم ذلك ، ولا أنصحك بالزواج الآن ، اتخذ لك صديقة .

وأذهله رأيها الجرىء ، انها تتحدث عن الصداقة بين الرجل والمرأة حديثا عاديا ، كأنما تتحدث عن شيء مألوف لا يخجل ولا يخدش حياء العذارى ، انه اضطرب لما طلبت منه أن يتخذ له صديقة واحتقن وجهه بالدم ، أما هى فلم تطرف لها عين ، ورد ذلك

الى انها تعيش عيشة الرجال وتشق طريقها معتمدة على نفسها بعيدة عن الأهل والرقباء ، انه هو وان كان رجلا على ابواب الثلاثين لا يستطيع ان يعيش بعيدا عن أمه تلك السنين الطويلة التى عاشتها وحدها .

واضيئت اضواء المدينة ، وراحا يضربان فى جنباتها وهو يستشعر انه يعيش فى حلم جميل او عند منعطف من الطريق احس لمس يدها يده ، انه لا يدرى أكان ذلك عفوا أم انها تعمدت ذلك ، كل ما يدريه أن خدرا لذيذا سرا فى أوصاله ، أسكر روحه وأفعمها بالنشوة .

وانتهيا من طوافهما وعادا الى السيارة وقال لها وهو يفتح لها بابها :

ــ آسف ان كنت قد أتعبتك .

ورنت اليه بعينيها الواسعتين اللتين يذوب رقة من بريقهما وقالت :

ــ يا ليتك تتعبنى .

وأفترت شفتاها عن اللؤلؤ النضيد ومالت لتدخل السيارة واذا بعينيه تسرعان الى ساقيها .

وعادا الى الفندق ، واسرع بالهبوط وهو يحمل ما اشتراه ، ومد يده اليها يصافحها قبل أن ينصرف ، واذا بها تقول له :

ــ انت ضيفى يوم الأحد ، وستكون ضيفى من أول النهار .

فقال فى فرح :

ـ شكرا .
ـ سأمر عليك فى الثامنة صباحا .
ـ ولم كل هذا التعب ؟ .
فقالت وهى ترنو اليه رنوة زلزلت كيانه :
ـ احب أن تتعبنى .

وانطلقت وانساب الى غرفته وهو نشوان ، ووضع ما يحمل على النضد ،وخلع ثيابه وتمدد فى سريره وأطفأ النور فقد كان متلهفا الى ان يعيش معها بخياله ، ينعم بالمشاعر اللذيذة التى اقيظتها المقابلة السعيدة .

وهام فى عالم من الرؤى والأحلام ، وبدأ ذلك الصوت الزاجر الذى راح فى سبات يتحرك فى أعماقه ويفسد سعادته ، قال له فى تقريع : كانت تصرفاتك الليلة بعيدة عن الشرف والأمانة ، فهب الصوت المدافع يقول : اننى تصرفت تصرف الرجل النبيل . لم تبدر منى بادرة تنم عن سفالة ولم تخرج من بين شفتى كلمة تخدش الحياء . فقال الصوت الزاجر ساخرا : يا للرياء . تصرفاتك النبيلة قد تخدع غيرى ، أنا لا أحاسبك على حركاتك بل على خلجات نفسك ، بأى حق كنت تتفرس فى ساقيها وتشتهى لو تمرر عليها يدك ، بأى حق كدت تطير من النشوة لما لمست يدها يدك ؟ بأى حق راودتك فكرة ان تدعوها للعشاء معك لولا اننى عقلت لسانك ؟ فقال الصوت المدافع فى ضيق : من انت ؟ فقال الصوت الزاجر : أنا ضمير . فصاح الصوت المدافع : انت الذى تغفو عند الشدائد حتى اذا ما مرت بخيرها وشرها هببت كالمارد الجبار تلهبنى بسياطك ، أنت لا خير

فيك ، انت لا تجيد الا التعذيب . فقال الضمير : أنا لا أغفو أبدا ، انا ملاكك الحارس ، لو تخليت عنك لحظة لترديت فى المهاوى والظلمات. وصاح الصوت المدافع : كذاب . وقال الضمير فى انفعال : أنت نذل .. نذل .. نذل . .

وراح همام يتقلب فى الفراش فى الم ، كان متلهفا على أن ينفرد بنفسه ويطفىء النور ليعيش معها فى الدنيا البهيجة التى ينسجها خياله واذا بذلك الذى يفسد عليه لحظات صفوه يقتحم عليه خلوته ويشنها حربا لا هوادة فيها ولا رحمة ، انه لا يكتفى بتقريعه بل يأمره الا يذهب معها يوم الأحد ، يا للسخرية أمن الكياسة وحسن الذوق أن يفر من خطيبة صديقه الحميم التى تدعوه للاحتفال به اكرامـا لصديقه . انه سيذهب ولو أغضب ذلك المجنون الذى لا يحسن الظن بالنـــاس .

وجاء يوم الأحد ووافت الساعة الثامنـة ، واقبلت سميحه فى سيارتها مشرقة كزهرة الربيع ، وزاد فى فتنتها أنها كانت ترتدى ثوبا بسيطا من ثياب الصباح وتغطى مؤخرة راسها بمنديل كبير من الحرير المزين بأزهار وورود ، لفته حول عنقها .

وخف همام يصافحها فى شوق وترحيب ، وركب الى جوارها وانطلقت السيارة الى الليدو . انه كازينو على الشاطىء امتدت على جانبيه « كباين » تضمها بناية من طبقتين ، فى نهايتها انتشرت بعض عشش متواضعة ، وقوارب صغيرة .

ووقفت السيارة فى فضاء على يسار الطريق وهبطا منها وقـد حملت سميحه حقيبة كبيرة من القماش المخطط ، وخف همام اليها

وتناولها منها ، وسارا حتى بلغا بضع درجات صعدا فيها فوجدا ردهة بها بضع مناضد ، كل منضدة تمثل ملعبا لكرة القدم ، صف فيه اللاعبين فى قضبان تنتهى بمقابض خشبية يحركها المتبارى ، كان حارس المرمى فى قضيب وحده ، له مقبض خشبى يحركه وكان الظهيران فى قضيب آخر أمام حارس المرمى وهكذا اصطف الفريقان وجها لوجه ووضعت الكرة بينهما .

والتفتت سميحه الى همام وقالت :

ـ أتحب أن تلعب ؟ .

والتقت عيناه بعينيها وقال :

ـ أخشى أن أهزم .

فقالت وهى تضحك :

ـ هذا أمر مفروغ منه .

وضحك مرحا وتقدما الى نضد خال ، وقالت :

أنا الفريق الأحمر ، وأنت الفريق الأخضر .

ووضعت الكرة أمام الفريق الأحمر وحركت سميحه المقبض الذى يحرك خط هجومها كله حركة تسمح بضرب الكرة ويحركه يمينا أو شمالا بالنسبة لجانبى الملعب ، أو أماما أو خلفا بالنسبة للقضيب المثبت فيه .

وبدأت المباراة وارتفعت ضحكات سميحه وصيحاتها وكلما اصابت مرماه هللت كالأطفال ، وأصابت مرماه ثلاث مرات ، وعزم

فى قرارة نفسه على ألا يهزم أبدا وبذل كل جهده ليفوز ونجح فى ان يصيب مرماها مرة ثم مرة ثانية وأشرق فى نفسه الأمل ، ولكنها اصابت مرماه اصابة رابعة ثم اصابة خامسة وتوقفت فجأة عن اللعب وقالت فى مرح :

ــ الأحمر يكسب .

واخذته من يده وسارت بضع خطوات ثم عرجت به الى درج جانبى وصعدت فيه وهو معها مسلوب الارادة .

ووصلا الى الطبقة العليا واتكأت بمرفقيها على الترابزين ومدت بصرها الى البحر وقالت :

ــ المياه هادئة اليوم ، والشاطىء بديع ، هات الحقيبة .

ورفع اليها الحقيبة فأسندتها على الترابزين وفتحتها واخرجت منها مايوه أحمر نحته جانبا ، ثم اخرجت مايوه آخر ودفعته الى همام وقالت :

ــ خذ هذا ؟ .

وتناول همام المايوه فى ارتباك ، وحملت الحقيبة والمايوه الأحمر ودخلت « كابينة » خلفها ونظرت الى همام وقالت وهى تغلق الباب فى دلال :

ــ عن اذنك لحظة واحدة .

وخفق قلب همام فى شدة ، وجف حلقه وراودته فكرة ان يفر ولكنه جبن عن ان يفعل ذلك ووقف مستسلما وهو يرجو فى أعماقه ألا تتطور العلاقات بينه وبينها الى أكثر مما بلغته .

وفتح الباب عنها ، كانت آية من آيات الجمال ، وبدت فى المايوه الأحمر فتنة طاغية ، ودار رأس همام ، وقال دون وعى منه :

ــ رائعة .

واحتقن وجهه بالدم ، كيف افلتت الكلمة من شفتيه ، وخشى أن يكون تجاوز حده ، ولكن البسمة التى توجت شفتيها اسكنت الطمأنينة قلبه ، وقالت راضية :

ــ متشكره .

واشارت بيدها الى الكابينة :

ــ تفضل .

وتقدم مضطربا وزاد قلقه لما مر بها واضطر الى ان يلمس كتفه كتفها العارى ، وهو فى طريقه الى الداخل ، فقد سدت بجسمها نصف الباب ، وأحس أنها تعمدت أن تميل نحوه لما مر بجوارها . ووقف فى وسط الكابينة ينظر اليها فى بلاهة ، انه يريد أن يغلق الباب وهى واقفة عند عتبته ترقبه ، ورأت ما هو فيه من حيرة ، فضحكت فى مرح وقالت :

ــ لا تخف . سأغلق الباب خلفك .

ومدت يدها وجذبت الباب واغلقته عليه ، واتجهت الى الترابزين تتسلى بمشاهدة المصطافين .

وفتح الباب وخرج ، كان يمتاز بجسم رياضى متناسق يختفى تحت ثيابه ، ودارت على عقبيها ونظرت لما رأته قالت :

ــ رائع .

وابتسم فى ارتباك ولم يحر جوابا . ودنت منه وسارت معه كتفه

الى كتفها وراحا يهبطان الدرج وفى يدها دفان لا يدرى ماذا ستفعل بهمـــــا .

ووصلا الى الشاطىء ودفعت اليه بدف فتناوله فى حيرة ونظر اليها فى استفسار فاذا بها تخرج كرة صغيرة وتضربها بعيدا بالدف، ففطن الى أن الدفوف على شواطىء طرابلس تستعمل عوضـا عن المضارب الخشبية .

وراح يعدو وراء الكرة حتى لحق بها وتناولها وضربها بدفه فلما وصلت اليها ضربتها بدفها ،وظلا يلعبان وصوت ارتطام الكرةبالدفوف يجاجل بالمكان ، ولم يجذب ذلك الصوت أنظار أحد ، فقد كان شيئا مألوفا .

وانتهيا من اللعب وجلسـا على الرمال فاذا بهـا تستلقى على وجهها وهى تحادثه وترفع ساقا ثم تخفضها لترفع الساق الثانية، ومرت بهما بعض فتيات جميلات فى ثياب البحر ، فقالت ـ أجسام الايطاليات متناسقة جميلة ، فياضة بالأنوثة .

فقال فى حماسة :

ـ أنت أجمل أنثى هنا .

وفزع ، كيف نطق بهذا ، وأشاح بوجهه عنها فى ندم ، وأحس أنها انتصبت قائمة ، فانقبض صدره وضايقه احساسه بأنها ظنت انه يغازلها ، ليتها تعلم أنه كان يقرر حقيقة وأنه لم يقصد أبدا أن يخدش حيـاءها .

وسمع صوتها يمس أذنيه رقيقا وهى تقول :

ـ هيا نسبح .

وفى مثل لمح البصر تبخرت مخاوفه منتعشا ، وراحت تهرول الى البحر وهو يهرول فى أثرها ، والقت بنفسها فى الماء والقى بنفسه خلفها ، وغطست وغطس وعامت تحت الماء وجذبته من ساقه ودار حول نفسه دورة وجذبها من يدها ثم طفا على سطح الماء وهو يجذبها ، وخرج رأساهما من الماء وضحكا فى مرح وانطلاق ، وبسطت كفيها ثم اخذت تضرب الماء بهما فى قوة فى اتجاهه ، فارتطم الماء بصدره ووجهه وأراد ان يتقى الماء فغطس وعام من تحتها ثم رفعها بكتفيه ، فارتفعت فى الهواء وهى تصرخ صراخا امتزج بضحكاتها ولفت ذراعيها حول عنقه حتى لا تسقط ، ولكنه فك ذراعيها بيديه ثم القى بها فى الماء وهو سعيد .

واستمرا فى كر وفر ولعب وملامسة ومزاح حتى نال منهما التعب فخرجا من الماء وانطلقا الى الكابينة يبدلان ثيابهما .

وركبا السيارة وقال لها :

ـ اشكر لك هذا اليوم الجميل .

ـ انت ضيفى طوال اليوم ولم نبدأ بعد .

وانطلقت السيارة حتى غادرت المدينة وانسابت فى طريق مرصوف على جانبيه أشجار الكافور ومزارع الزيتون وقد امتدت فيها انابيب تسقى التربة الحمراء بالرش ، وكانت اشجار الزيتون فى صفوف مستقيمة أشبه بصفوف الجنود وجعل يتسلى بالنظر الى الحقول ليهرب من المشاعر الفوارة التي اخذت تغلي في جوفه .

واستمرت مندفعة دون توقف فقال لها :

ـ أسنعود برا الى الاسكندرية ؟ !

فقالت وهى تبتسم :

ـ هل اشتقت الى مصر ؟ من سوء الحظ أن هذا الطريق لايقودك اليها ، ستجد نفسك لما تنته من قطعه فى تونس .

فقال لها وهو ينظر الى جمال تقاطيعها :

ـ سواء على أن اكون فى تونس أو فى مصر أو فى ليبيا مادمت ضيفك .

والتفتت اليه فألفت ذراعه الى جواره فتناولتها ولفتها حول ظهرها وقالت :

ـ خذ راحتك . الطريق طويل .

ودغدغت حواسه مشاعر رقيقة استكان لها وعبثت أصابعه فى كتفها فانسكبت نشوة معربدة فى وجدانه ، وقال :

ـ الى أين نحن ذاهبان .

ـ الى حيث نتناول غذاءنا ونمضى بقية يومنا .

وقرأ لافتة على الطريق كتب عليها « زرزور » ، فقال :

ـ لقد تركنا « الزاوية » وبلغنا « زرزور » ! .

ـ اهدأ لقد وصلنا .

وقطعت بضع كيلومترات ثم عرجت فى طريق الى اليسار على جانبيه اشجار الكافور ، كان من التربة الحمراء ولكنه كان شديد

التماسك من كثرة مرور السيارات فوقه ، ولاح على البعد بيت أبيض من طبقة واحدة ، فقالت :

ـ هذه هى الدار .

ووقفت السيارة أمام الباب وهبطت منها وهبط ودلفا الى فناء واسع مبلط به بعض اشجار تركت الأرض عارية حولها ، وسارا الى باب في حاجز من زجاج واخترقاه فألفيا نفسيهما فى ردهة واسعة فرشت بالطنافس الغالية ، وتكدست فيها المقاعد الوثيرة والتحف الفنية حتى ان العين لم تعد تميز منها شيئا من كثرتها ، وزينت الحيطان بلوحات من ايطاليا ، واخترقا الردهة حتى وصلا الى غرفة الاستقبال التى فرشت بسجاجيد عجمية فاخرة وأطقم من الذهب وانتشرت التماثيل الفاخرة فى كل مكان .

وجلسا فى مقعدين متجاورين واضطجعت فى مقعدها وقالت :

ـ هل تعبت ؟ .

فقال وهو يجول بعينيه فى المكان :

ـ ليت كان كل التعب مثل هذا ؟ .

ـ أتحب أن تستريح قليلا ثم تتناول الغداء ؟ .

ـ كما تشائين .

ودقت جرسا فأقبل خادم أسود ، فقالت له :

ـ أين على ؟ .

فقال الخادم فى أدب :

ـ فى غرفة السفره .

فقالت وهى تشير براسها :

ـ « ضبع له » .

وانصرف الخادم والتفت همام اليها وقال :

ـ لم افهم ماذا قلت .

ـ قلت « ضبع له » اى ناده ، وما أكثر الكلمات المستعملة فى طرابلس والتى لا يعرفها أهل برقه .

واقبل على وهو شاب أسمر ووقف امامها فى احترام ، فأمرته ان يذهب بهمام الى غرفة النوم وأن يعطيه بيجاما .

وسار همام مع الخادم حتى وصل الى غرفة كل ستائرها من المخمل الأحمر فى وسطها سرير من خشب الورد غطى بمفرش من الحرير الأحمر . وعن يسار السرير صوان من نفس خشب السرير وفى الغرفة مقعد طويل وتسريحة فاخرة صفت فوقها أنواع من العطور النادرة .

وقدم الخادم اليه بيجاما من الحرير وانصرف ، فراح يخلع ثيابه وهو يتلفت فى حيرة ثم تمدد فى المقعد الطويل يستريح ويشرد مفكرا فيما هو فيه ، انه يكاد ينكر نفسه ، لا يصدق واقعه ، وقد خيل اليه اكثر من مرة انه يحلم .

واقبلت فى روب منزلى من الحرير فى زرقة السماء تزينه ورود حمراء كبيرة ، كان رائعا على الرغم من تنافر الوانه ، وحاول أن ينهض ولكنها وضعت يدها على صدره وقالت :

ـ خذ راحتك .

ثم جلست على الأرض ودنا راسها من راسه . انه يحس أنفاسها تلفح وجهه وان ذلك البريق المنبعث من عينيها يزلزل كيانه ،ويوقظ الغول الكامن فى أعماقه ، انه يشتهى أن يضمها الى صدره ويمطرها بقبلاته .

واراد أن يفر من المشاعر المدمرة التى بدات تعصف به ، فقال :

ـ بيت من هذا ؟ .

فقالت وهى تمرر يدها على شعره :

ـ بيت صديق من أصدقائى ، وقلما يستعمله .

ونهضت فى دلال أضرم النار المتأججة فى أحشائه ، وهم بأن يلف ذراعيه حول خصرها النحيل ويعصرها عصرا ولكنه كبح فى جهد تلك الرغبة المشتعلة ، ورنت اليه وقالت :

ـ هيا ، لقد أعد الغداء .

ونهض وسار الى جوارها الى غرفة السفرة ،وجاء الخا
فى الطبق العميق الذى امامه شربة حمراء فلما تناو

ـ أوه .. كلها شطه .

فقالت وهى تضحك :

ـ ولكنها لذيذة .. انها شربة ليبيه .

وانتهيا من غدائهما بعد ساعة كاملة ، وذهب الى غرفة النوم وتمدد فى الكرسى الطويل وراح فى سبات ولما قام من نومه وجـدها بقميص النوم ممدودة على السرير فى نفس الغرفة .

ووقف ينظر اليها خافق القلب مبهور النفس تراوده أفكار خبيثة، وكاد أن يميل عليها ويضع شفتيه على شفتيها ويطفىء النيران المتلظية فى حشاياه ، ولكنه جاهد نفسه جهادا كلفه جهدا ثم دار على عقبيه وخرج من الغرفة لا يلوى على شيء ، وان كانت كل خلجة فيه تنتفض .

وذهب الى غرفة الاستقبال وهو محموم ، يرتجف من راسه الى أخمص القدم ، وراح شيطانه يغريه بأن يعود اليها ينهل من عذب رحيقها حتى يطفىء ظمأ روحه ، ويوسوس له أن يعب الكأس الشهية الفياضة بالنشوة ، المترقبة لمن يشربها .

وهب واقفا وهو يضطرب ، وراح يذرع الغرفة جيئة وذهوبا وقد كاد يغيب عن وعيه ويدخل فى شبه غيبوبة ، واستقر رايه أخيرا على أن يذهب الى غرفة النوم يحضر ثيابه ثم يفر من الخزى الذى يترقبه ، انه لو سمح لنفسه أن يخون فكرى فلن يعرف طعم الراحة ابدا .

وعاد الى الغرفة وراسه يدوى ، وقلبه يدق فى شدة ، وضميره يلهبه بسياط عذابه ، ودنا من سريرها فسرت فى بدنه رعدة واستشعر أن روحه ورأسه خواء ، ونظر اليها بعيون زائغة لم تكن نائمة بل كانت تحدق فيه بعينيها الواسعتين اللتين لا يعرف لهما قرارا ، وكانتا زاخرتين بنداء واه رقيق دك فى لحظة كل حصون مقاومته ، فانهار على صدرها وراح يقبلها فى وله وسعار .

وأرخى الليل سدوله ، وتقضى بكل ما يحمل فى جوفه من أسرار ، وقبيل الفجر قام من نومه فوجدها فى السرير الى جواره ،

فهب مرعوبا . يستشعر نحوها مقتا شـديدا ، وراودته فكرة أن يضربها ويصفعها ويلطمها ويركلها ويمزق شعرها ويبصق فى وجهها لينفس عن الكراهية الهائلة التى يضيق بها صـدره ، فقـد أصبح يحتقرها ويحتقر ذاته ، ولو كان من يقدمون على ارتكاب الجرائم لقتلها وقتل نفسه .

وذهب الى الصوان وهو حانق ينفث فى صوت مسموع سموم نفسه ، وخلع البيجاما وألقاها بعيدا ، وارتدى ثيابه ونار تسرى فى جوفه وجفـاف يكاد يخـرط حلقه ، ووخز أليم يخز كل مراكز الاحسـاس فيه ، ومطارق هائلة تدق رأسـه ، وعاصفـة من اللوم والتقريع تهب عليه تكاد أن ترديه .

وراح يعدو حتى خرج الى الطريق ، ولفحت وجهه نسائم الفجر الطرية ، ولكنها عجزت عن أن ترطب روحه ، كانت النار تسرى فى كل جوانحه ، وقد أتت على كل مستودعات الطمأنينة والسكينة فيه .

وطفق يفكر فيما يفعله ، أيعترف لفكرى بما كان بينه وبينها فى تلك الليلة الفاجرة المقيتة ؟ أيقول له ان سـفيره الذى حمله امانة صغيرة قد خانه ولم يرع الأمانة ؟ أجل لقد خنته ليلة ، ولكنها تخونه كل ليلة ، ولكن مالى ومالها ، لست مسئولا عن تصرفاتها ، ولكننى مسئول عن تصرفاتى أنا قبل أغلى صديق .

صديق ؟ ! لقد انتهت الصداقة البريئة النقية التى كانت بينى وبينـه ، أنا الذى دنسـتها ، دنستها الى الأبد ، سـيظل شبحها بينى وبينه ، سواء اعترفت له بنذالتى أم طويت سرى البغيض بين جنبى . أنا نذل .. نذل .. نذل .

واخذ يعدو ليفر من الصوت الذى يرن فى أعماقه ، ولكن الصوت كان يزداد علوا ، واخفى أذنيه بيديه دون جـدوى ، وترنح وكاد يسقط اعياء ، واذا بسيارة تقف الى جـواره ويدعوه صاحبهـا للركوب .

وركب ساهما ، وراح صوت السيارة وزفيف الريح وخفقان قلبه وكل ما يحسه فى الوجود يهتف به : نذل .. نذل .. نذل .

وأطرق وطفرت الدموع من مآقيه ، ولكنها عجزت عن أن تطهر الأثم الذى ارتكبه ، أو تطفى النار المتلظية بين الضلوع . —

حديث الشهر

الأدب والسينما

عزيزى القارىء

فى هذا العام ستشاهد فى السينما ما سبق أن قرأت لكتابنا الكبار من روائع . فقد حولت دعاء الكروان للدكتور طه حسين الى فيلم أخرجه بركات وقامت بالدور الأول فيه فاتن حمامة كما شرع فى انتاج قصة الرباط المقدس لتوفيق الحكيم . وساره للعقاد ، وبين القصرين لنجيب محفوظ ،وسالك من شعاع لعادل كامل الى جانب قصص احسان عبد القدوس وأمين يوسف غراب وعبد الحليم عبد الله .

ولا شك فى أن ذلك هو الاتجاه السليم للسينما العربية لأنه يكون لنا رصيدا من الأفلام يمكن أن يعبر عن حقيقتنا بعد أن استخدمنا الأفلام التى تعودت أن تشوه واقعنا وتفترى عليه وتعكس لنا صورا لاتشابهنا فى شىء .

والأفلام لم تعد مجرد وسائل للتسلية وقطع الوقت ولكنها أصبحت - بالاضافة لذلك - أحد الوجوه المعبرة عن الشعوب وعن حياتها ونهضتها وتقدمها ، فالشعوب كانت تتعارف من خلال آدابها وفنونها وقد أصبحت الأفلام من أوسع وسائل النشر فى العالم للفنون والآداب .

ولقد ظلمتنا أفلامنا فيما مضى . فقد كانت وجها يسىء التعبير عنا . ونأمل أن تعوضنا عن اساءتها خيرا بعد أن بدأ تعاون الفنيين فيها مع أدبنا الحقيقى .

يوسف السباعى

استمتع بقراءة هذه الكتب فى هذا الشهر

سلسلة شهرية تصدر عن نادى القصة

الناشر الشركة العربية للطباعة والنشر
٢٧ شارع نجيب الريحانى بالقاهرة

١٠ قروش